

تقديم

الشيخ/ محمد عياد الطنطاوي

الأزهري الذي مات ظلماً واغترباً في روسيا

بقلم: أ. يوسف التعيد

حتى أنا ظلمته دون أن أدري، وقفت في طابور من ظلموه، وهو أطول طابور لظلم إنسان، يمتد في الزمان من القرن الماضي، ويصل حتى زماننا، ويتربع في المكان، من روسيا إلى مصر المحروسة، مروراً بالإمبراطورية العثمانية.

والحكاية، أنني قضيت أسبوعاً في مدينة لينينجراد بالاتحاد السوفياتي، كانت الزيارة الأولى، حيث العودة إلى بحار الدهشة القديمة، ومحاولة تدقيق المرئيات.

بعد العودة، وجدت السؤال في انتظاري:

- هل زرت قبر الشيخ الطنطاوي؟! وقرأت الفاتحة على روحه؟.

بدأت رحلة البحث عن هذا الأزهري المدفون في أصقاع بلاد الشمال الباردة، من الصعب القول إننا قد نسيناه؛ لأن أجيالاً كثيرة خرجت إلى الحياة لا تعرف من هو الشيخ الطنطاوي؟.

اسمه بالكامل: محمد بن سعيد بن سليمان عياد المرحومي الطنطاوي الشافعي، وُلد في قرية نجريد، من قرى الغربية سنة ١٢٢٥ من بعد هجرة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، و ١٨١٠ من بعد ميلاد السيد المسيح (عليه السلام).

كان والده من قرية محلّة مرحوم، وفي ذلك الزمان البعيد، كانت محلّة مرحوم لها وزن أكثر من طنطا التي أصبحت عاصمة الإقليم، عندما بنى علي بك الكبير مسجداً في طنطا للولي المعروف السيد أحمد البدوي فتغير الحال، أحيلت العاصمة القديمة إلى المعاش، وخرجت إلى الوجود عاصمة أخرى، والمدن كالناس، تولد وتكبر، ثم تأتي إليها الشيخوخة، وأخيراً الموت، وكان والده يعمل في التجارة، وكان له شقيق واحد هو مصطفى، وقد عمل بالتجارة أيضاً.

جاء محمد عياد الطنطاوي إلى عالمنا، بعد حكاية نابليون بونابرت الذي حضر إلى مصر، ومعه المدفع والمطبعة، ثم عاد ومن بعده جنده، معهم المدافع ولكنهم تركوا المطبعة في بر مصر، وانثى التاريخ عن المغامر الجسور، تاجر الدخان الألباني الذي قرر أن يستنبت طموحه الذي لا حدود له، وأحلامه التي لا تعرف المنتهى في تربة وادي النيل العظيم، جاء بيزور أمانيه من أوروبا؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يرسل النوابغ والنابهين إلى أوروبا.

كانت تلك هي الكلمة الأولى في مصر الطنطاوي. وإن كان قد رحل صوب الإمبراطورية الروسية بدلاً من فرنسا، التحق الطنطاوي بالكتاب في سن السادسة. وكانت شهرة طنطاوي في تحفيظ القرآن تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين، وقد قيل: ما قرآن إلا أحمدى، وما علوم إلا أزهية.

في سنة ١٣٣٨هـ، ١٨٢٣م، رحل محمد إلى القاهرة، دخل الأزهر الشريف، وكان رفاقه في الدراسة هم: رفاعة رافع الطهطاوي، الذي أصبح صديقاً له، على الرغم من أن الطهطاوي كان يكبره بعشر سنوات، وبعد ذلك أصبح الطهطاوي علم المرحلة ونجمها الكبير، في حين انزوى الطنطاوي في زوايا النسيان، حتى كتابه: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، فاق في شهرته كتاب طنطاوي: "وصف روسيا" الذي ما زال مخطوطاً حتى الآن، بل إن من كتبوا بعد ذلك عن الكتابين يقولون: إن طنطاوي كتب وصف روسيا، وهو تحت تأثير كتاب الطهطاوي.

وصف روسيا والاسم الذي اختاره له مؤلفه الشيخ الطنطاوي: تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا (نسخة سان بطرسبرج)، وهو المخطوط الذي ظل في مجاهل النسيان، وفي غياهب الظلمات، نسمع عنه ولم نقرأه؛ إلي أن جرت قراءته مؤخرًا وتحقيقه وتدقيقه بمعرفة الصديق الدكتور علي متولي أحمد، باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب المصرية. وما أنذا أكتب مقدمة لهذا الكشف العلمي والأدبي والحضاري المهم، وهو ما لم أكن أتصور أن يمتد بئ العمر حتى أقوم به.

نكمل حكايتنا:

كان من رفاق الشيخ محمد عياد الطنطاوي، الشيخ محمد قطة العدوي محقق كتاب العروض ومحقق النسخة الأصلية والأساسية من "ألف ليلة وليلة"، التي طبعتها مطبعة بولاق الأميرية، وهي النسخة التي عاشت عليها كل الأجيال حتى لحظة كتابتها هذه السطور.

وكان من أساتذة طنطاوي: حسن العطار، وإبراهيم الباجوري، ومحمد الترميذي صاحب القاموس الشهير: تاج العروس، اتجه طنطاوي إلى دراسة علوم اللغة في زمان كان كل أبنائه يتجهون إلى الفقه أولاً، والفقه أخيراً، وكأنه بذلك قد بدأ الخطوة الأولى في السباحة ضد تيار العصر، وربما كان عطاؤه أهم وأكثر تحضراً في ميدان علوم اللغة، ولكن العصر كان عصر تفقه أكثر من دراسة في اللغة.

توفي والد طنطاوي بعد وصوله إلى القاهرة بخمس سنوات، فكان عليه أن يُدبر شؤون حياته إلى جانب الاستمرار في دراسته، في سن العشرين قام بالتدريس في الأزهر رغم أنها سن مبكرة، وكان يعطي دروساً في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب، وفي السابعة والعشرين من عمره جاء إلى مصر وبياء، وما أكثر الأوبة في هذا الزمان، وكاد يفتك به، لدرجة أن خبر وفاته عرف وأعلن في القاهرة، ولكنه نجا من موت محقق.

قضى في الأزهر عشر سنوات مدرّساً، وانقطع عن التدريس في بعض الأحيان بسبب مرضه، وسيصبح المرض بعد ذلك رفيق رحلته وأنيس غربته، وسيقعه عن العمل في الوقت الذي يصل فيه إلى ذروة المعرفة والانتشار، والمرض لم يكن مشكلته الوحيدة، مرتب الأزهر كان ضئيلاً، وكان لا بد من عمل لكي يعيش، وهكذا عمل طنطاوي في وظيفة ثانية.

يبدو أن العمل الثاني الذي يمسك برقاب المثقفين في مصر عمره أطول مما نتصور، ربما كان مؤامرة قديمة لأكل المواهب، وتبيد الوقت وتعكير صفاء الذهن، ونسف القدرة على الإبداع.

كانت مصر قد عرفت المطبعة والطباعة، وهكذا وجد طنطاوي عمله الثاني وهو التحرير والتصحيح لما ينشر من علوم أوروبا، لكنها القوانين الأقوى والأكثر خلوذاً في مصر، التي اخترعت الأبدية، قوانين الأزهر منعت من العمل الثاني، فبحث عن عمل آخر لا يعترض عليه الأزهر، وقد كان.

عمل في تدريس اللغة العربية وأدائها للفرنجة، كان أول عالم لغوي، في أول مدرسة في زمانه. وكان هذا التدريس هو الذي غير مجرى حياته كلها، كان من تلاميذه مستشرقون فرنسيون وألمان، ومن بينهم - وهذا هو المهم - اثنان من روسيا، التي لم يكن قد أطلق عليها الاتحاد السوفييتي بعد. ولم تكن قد عادت إلى لقبها القديم بعد أن جرى لها ما جرى، حيث أول تجربة في تاريخ البشرية لحلم اشتراكي، أو لنقل شيوعي. شهد القرن العشرين قيامه، وشهد أيضاً نهايته.

الطالبان الروسيان هما: موخين وفرين، الأول هو: نيقولا موخين الذي كان مترجماً في القنصلية العامة الروسية في مصر سنة ١٨٣٥، ثم نقل إلى إسطنبول بعد عامين، مترجماً رابعاً في السفارة الروسية هناك. التي كانت أهم سفارات روسيا في الشرق كله، حيث الإمبراطورية المترامية الأطراف التي لا تحدها حدود.

تشاء أقدار الطنطاوي أن يكون نيقولا موخين هو موافق رحلته إلى بطرسبرج بعد ذلك. والثاني هورودلف فرين، كانت تلك هي الخيوط التي نسجت مصير الرجل، ورسمت شكل حياته.

في سنة ١٨٤٠ وجهت الدعوة بإذن من قيصر روسيا، وموافقة محمد علي باشا إلى الشيخ الطنطاوي ليسافر إلى روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية في بطرسبرج، وكانت هي عاصمة روسيا القيصرية. وأصبح اسمها بعد ذلك لينينجراد. وقد نقلت العاصمة فيما بعد إلى موسكو، وذلك أن دوام الحال من المحال.

وحسب تقاليد ذلك الزمان، استعد الشيخ الطنطاوي للسفر إلى روسيا وربما يحتاج إليه سفره، وكانت أهم بنود ذلك الاستعداد أنه اشترى جارية، وأرسلها لكي تحصل العلوم في باريس، كنوع من الإعداد لها للحياة الجديدة، ثم تزوجها حتى لا يكون وحيداً في غربته وكانت هذه الزوجة تدعى "أم حسن".

غادر الطنطاوي القاهرة، يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم سنة ١٢٥٦هـ الموافق السادس عشر من مارس سنة ١٨٤٠. وركب صندلاً في النيل، كان يسير ويتوقف حسب حالة الجو، مربشبرا التي كانت مشهورة ببساتينها، ولم يمر علي طنطا؛ لأن طريق بحر النيل، لم يكن يحضنها، كان بعيداً عنها، ولكنه شم رائحتها عندما استنشق هواء الغربية، لم يتوقف فعفريت السفر كان قد ركبه وانتهى الأمر، ولم يعد قادراً على أن يحط على الأرض.

وصل إلى الإسكندرية يوم الثاني والعشرين من مارس، وكان لكل مدينة باب يقفل إذا جاء الليل، يحميها من قطاع الطرق ورجال المنسر، ولا يفتح الباب إلا صباحاً، وصل الطنطاوي إلى الإسكندرية بعد أن أقفلت أبوابها فاضطر إلى المبيت خارجها.

في الإسكندرية، المدينة التي يأتيها البحر، وتضاجعه كلما أكل قلبها الاشتياق للفعل، قضى طنطاوي عدة أيام عند قنصل روسيا العام، ركب بعدها باخرة في البحر المالح، لأول مرة في حياته، ذلك البحر الذي بلا شاطئ آخر.

وفي السادس والعشرين من مارس، أصيب بدوار البحر. كان السفر عن طريق جزيرة كريت، حيث تزودت السفينة بالفحم الحجري اللازم للوقود، وصلت إلى أزمير في الثالث من إبريل، قطعت الباخرة بحر مرمرية ووصلت إلى إسطنبول، وأمضى الطنطاوي أياماً في الحجر الصحي، وقابل السفير الروسي الذي كلف الترجمان موخين، تلميذ الشيخ سابقاً، بمرافقته في رحلته إلى روسيا.

غادر إسطنبول في الثالث والعشرين من إبريل، ركبا باخرة روسية، وخلال أربع وخمسين ساعة فقط وصلا إلى أودسا، أنفق الشيخ الطنطاوي هذه الساعات في دراسة اللغة الروسية، كان الوصول إلى أودسا في الخامس والعشرين من أبريل، وقضى وقته الذي مكثه في الحجر الصحي في تعلم الروسية أيضاً.

شاهد في أودسا الأوبرا الإيطالية، حيث رأى رواية السلطان محمد في المرة الأولى، وفي الثانية رواية العاشقين، ولم يكن في المسرح من يلبس العمامة سواه، غادرا أودسا يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من مايو، اخترقا روسيا من جنوبها حتى شمالها. بعربات البريد التي تجرها الخيول وتمشي ببطء شديد، رأى الطنطاوي بلاد سهلها شاسعة وأنهرها عريضة، وخضرتها كثيفة وتخلو تماماً من غبار الشرق الأوسط وحرارته وقبضه.

في الخامس والعشرين من مايو، وصل إلى مدينة كييف، ونزل في فندق لندن، وتركها بعد يومين من الراحة، ووصل إلى قرية موهلوف في الثلاثين من مايو، وأقام فيها ثلاثة وعشرين يوماً؛ لأن موخين، رفيق الرحلة، ومترجمها، كان له أقارب في القرية وطالت زيارته لهم.

فرك الطنطاوي عينيه من الدهشة وهو يرى المغناطيس لأول مرة في حياته، وسلك أذنيه الشرقيتين على صوت العزف على البيانو في بيوت الأهالي، وحضر حفلات الرقص، وزار الحمامات التي كانت تتفوق عليها حمامات القاهرة وإسطنبول كثيراً.

في يوم السبت الثاني والعشرين من يونيو غادر الطنطاوي موهلوف، وسمع عن أصداء حريق مدينة الإسكندرية، الحدث القديم الذي تجدد بعد ذلك أكثر من مرة. والإسكندرية مدينة بدأت صغيرة بناها الإسكندر ذو القرنين، ثم أصبحت فيما بعد واحدة من أعاجيب الدنيا القديمة. وأصبحت مكتبتها منارة العلم في زمانها. ورأى السكة الحديد الجديدة في روسيا.

وفي يوم السبت التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج، بعد سفردام ثلاثة أشهر ونصف الشهر، قضى منها شهرين في الحجر الصحي، وقرية موهلوف، وصل في زمن كانت الرومانسية الغربية، قد خلقت حالة غريبة من الاهتمام بالشرق؛ لذلك كان من الطبيعي أن يجتذب الشيخ الأزهرى المعمم أنظار روسيا كلها.

عاش الرجل في روسيا، ولكن الحنين أكله إلى مصر، فعاد إليها سنة ١٨٤٤، ثم رجع إلى روسيا حيث بقي بها حتى توفاه الله. وفي الثامن من أكتوبر سنة ١٨٤٧، وبعد سبع سنوات على حضوره إلى روسيا عين أستاذًا في الجامعة، وكان ميدان عمله قد اتسع، فشمّل الجامعة أيضًا علاوة على وزارة الخارجية الروسية، وفي تدريسه كان يجمع بين الطريقة النظرية والطريقة العملية.

كان يدرس قواعد اللغة العربية، ويشرح أمثال لقمان ويقرأ قطعًا تاريخية من مقامات الحريري، وكان يدرس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط العربية، وقراءة المخطوطات والمحادثة باللغة العربية، وابتداء من سنة ١٨٥٥. بدأ يدرس تاريخ العرب.

وفي الخامس عشر من أغسطس سنة ١٨٥٠، استحق الشيخ الطنطاوي الشكر القيصري على جهوده في التدريس لطلاب بطرسبرج، وبعد عامين حاز ميدالية من أحد ملوك أوروبا شكّراه على قصيدة باللغة العربية، ثم أهدها ولي عهد القيصر خاتماً مرصعاً بالجواهر شكّراه على جهوده. وفي هذه الأثناء كتب عنه الروس الكثير. قالوا في كتاباتهم، "إن طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال، وأن ذكائه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد".

كان الشيخ الأزهري المعمم، يجلس على أريكة في بيته، يشرب الشاي، وللشاي طقوس جميلة في حياة الروس. ثم يتحدث عن مصر المحبوبة، ورواتها ومغنياتها وراقصاتها، وغيرها من المسرات التي كانت تملأ حياته بمصر، وليس لها أي وجود في حياة روسيا، قالوا عنه: "إنسان تغلب عليه التعصب". كتبوا "مرح وعطوف"، أكدوا: "ليس لمثل طنطاوي أخرفي هذا العالم كله".

قام الطنطاوي بالتدريس خمس عشرة سنة منتظمة. ووصلت شهرته إلى أوجها. وفي سنة ١٨٥٥ افتتحت كلية اللغات الشرقية، وكان افتتاحها حدثاً مهماً بالنسبة له، ولكن يبدو أن لحظات تحقيق الأمانى هي نفسها، لحظات فقدانها، ففي أيام المجد، خانتته صحته، والعلّة التي تصيب الجسد في الغربية تصبح مأساة، وهكذا أصبحت حياته نوعاً من الهم المتصل. وفي هذا العام نشر آخر مقاله له بالفرنسية، وقال آخر قصيدة شعرية في رثاء القيصر نيقولا الأول.

والذي حدث، أنه في سبتمبر من عام ١٨٥٥، أصيب بشلل في قدميه، والأوراق التي تركها الرجل بخط يده عن هذه الفترة، تكاد الدموع تنزف من الحروف المكتوب بها.

في إبريل ١٨٥٦، طلب من الأطباء أن يمدوا له أجازته المرضية ثمانية وعشرين يوماً، ليسافر إلى بوهيميا، وذلك للعلاج بمياهها المعدنية الساخنة، ولا يدري الإنسان لماذا لم يطلب العودة إلى مصر، ويدفن الجزء المصاب منه في رمالها الساخنة؟ ما علينا.

في مارس من العام التالي، طلب السفر إلى الخارج للعلاج، والخط المكتوب به الطلب، وتوقيعه عليه، يشي بمدى تدهور حالته الصحية. وفي السابع من فبراير سنة ١٨٦١ تقاعد عن العمل.

ثم قدمت الجامعة طلباً لتقدير معاش تقاعدي للطنطاوي، بمناسبة مرور عشرين عاماً على خدمته في روسيا، بسبب مرضه، واستدعى من أجل توقيع الكشف الطبي عليه، فأجاب إنه لا يمكنه المجيء بسبب المرض. ويبدو أن

الكشف الطبي قد جرى في بيته. واستعفى من الخدمة في ٣١ يناير سنة ١٨٦١. أما التقاعد فقد تقرر في يوليو من السنة نفسها بمبلغ ١٤٢٩ روبلا، ولم يطل زمان انتفاعه به، فقد توفي في التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٦١، وكما يذكر في شهادة لإمام مسجد بطرسبرج، أنه مات من مرض الأكلة.

وهكذا مضى الرجل، ولكن ماذا عن أسرته التي كوَّنها في الغربية؟ في التاسع عشر من مايو ١٨٥٠، ولدت زوجة الطنطاوي ولداً أسموه "أحمد"، ولأن زوجته "أم حسن" توفيت قبله، توسل الطنطاوي في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أن يقبلوا ابنه في داخلية إحدى المدارس الوسطى على حساب الدولة الروسية، بسبب مرضه ووفاة زوجته.

وبعد وفاة الطنطاوي، توسل عميد المدرسة الداخلية لدى ولي الأمر أن يبقى معاشه لابنه، وصار الوصي الرسمي على "أحمد" الأستاذ كسوفتش، الذي عرض سنة ١٨٧٠ باسم أحمد على جامعة بطرسبرج شراء مجموعة مخطوطات الطنطاوي، وقد اشترتها المكتبة سنة ١٨٧١.

وهكذا استوطن أحمد الطنطاوي روسيا، وقد قدم في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٧٢. طلباً باعتباراه تابعاً عثمانياً، إلى إدارة الجامعة، لكي تعطيه سجل خدمة أبيه، ليقدمه إلى الإدارة الروحانية المسيحية في بطرسبرج لأداء القسم، حتى يستطيع الحصول على التبعية الروسية، وقد توفي أحمد في أواخر القرن التاسع عشر، ودفن في جبانة المسلمين، حيث سبق دفن أمه وأبيه، وجبانة المسلمين كانت موجودة في قرية فولكوف القريبة من بطرسبرج، ولكن الزمان محاً تماماً آثار قبر أم حسن وأحمد، ولم يبق سوى قبر الشيخ الطنطاوي فقط.

وفي الثالث والعشرين، من إبريل سنة ١٨٨٦، قدم الوصي سولفيوف طلباً إلى إدارة الجامعة، لكي يعطوه وثيقة عن الطنطاوي الابن، ليقدمها لمجلس الإشراف، لإدخال حفيدة الطنطاوي "هيلانة" في طبقة الأشراف، حتى يمكن تربيتها في دار أيتام الأشراف.

وهكذا نكتشف أن حفيدة الطنطاوي قد أصبحت مسيحية، ويكتشف من يبحثون عن أثر الطنطاوي وما بقي منه أن كل شيء ضاع، مع أنه جاء من من بلاد الأهرام الدافئة، والأهرام بناها المصريون لمقاومة الفناء وبحثاً عن الخلود المستحيل، أما بطل حكايتنا فقد مات في أصقاع روسيا الباردة.

مات الطنطاوي ظلماً واغتراباً، ولم يحدث إعادة إعتباره بعد رحيله، كما يحدث عادة، ولكنه كان ضيفاً ثقيلًا غير مرغوب فيه في حياته نفسها. في سنة ١٩٤٠، كتبت سافيليف: "أن اسم الطنطاوي معلوم لدى كل من يدرس العربية. مع أنه لم يؤلف شيئاً". وكتب غيوفوريف: "أن تدريس الشيخ الطنطاوي، لم يترك أي أثر في روسيا، والدور الأساسي الذي لعبه كان في الاستشراق الفنلندي".

أما الدكتور أغناطيوس كراتشوفسكي، مؤسس الاستشراق في روسيا كلها، فقد وضع يديه على قدر الطنطاوي ومأساته معا، في كتابه الجميل الذي ألفه عنه^(*)، وتأليف هذا الكتاب حدث مهم لمن يعرف قدر مؤلفه، في روسيا والعالم، يقول كراتشوفسكي:

- "كان الطنطاوي معاصراً لأغلبية رجال النهضة الأوروبية البارزين في القرن التاسع عشر، لكنه سار على خط غير الذي سار عليه معاصروه المشهورون، لقد بقي في عزلة عن الحركة العامة، ولم يشترك فيها، أو يؤثر في تطويرها، كان الطنطاوي ربيب الأزهر، حيث كانت التقاليد الكلامية ثابتة في ذلك الحين، ولكن الطنطاوي كان بعيداً عن دائرة صحفيي ذلك العهد الذين تحلقوا منذ سنة ٢٨ حول الجريدة العربية الأولى، وقد انضم الطنطاوي إليهم، ولا ندري كيف يمكن أن نكيف حياة الطنطاوي، لولم يرحل إلى روسيا وله من العمر ثلاثون سنة".

(*) والكتاب عنوانه: "حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي". تأليف: أغناطيوس كراتشوفسكي، ترجمه إلى العربية: كلثوم عودة وراجح النص العربي وحققه وعلق عليه، عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغني حسن ونشره: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤، ولولا هذا الكتاب الفريد والمهم ما كان ممكناً كتابة هذا المقال عن الشيخ الطنطاوي.

ولكنه انعزل عن حياة وطنه الروحية حتى كاد ينسى لدرجة أن العلماء المصريين، المندوبين في مؤتمر المستشرقين، المنعقد في ستوكهولم سنة ١٨٨٩، ما كانوا يعلمون عن وفاة مواطنهم، التي وقعت قبل ذلك بثمانية وعشرين عامًا كاملة.

كل هذا جرى، على الرغم من أن الطنطاوي ترك حين وفاته واحدًا وأربعين مؤلفًا، معظمها، مخطوط لم ينشر حتى الآن، لعل أهمها كتابه الفريد: "وصف روسيا" وعنوانه الكامل: "تحفة الأذكياء، بأخبار بلاد روسيا، وقد أهداه إلى السلطان عبد المجيد".

ورغم مرور كل هذه السنوات على رحيله، إلا أن أحدًا من بني وطنه، من مصر، لم يتحرك، لتحقيق كتبه ونشرها، ودراسة رحلته الفريدة والدور الذي قام به. وما أكثر الرسائل الجامعية التي تلوك ما قيل من قبل وتكرره، وتعيد وتزيد، مهملة منجم ذهب حقيقي يتمثل في آثار هذا الرجل، الذي طارده الظلم والغربة، حيًا وميتًا، ولاحق الظلم نتاجه الأدبي والفكري، وحتى أسرته لاقت نفس المصير.

إلى أن جاء صاحبنا الدكتور علي متولي أحمد وحقّق أحد كتبه، وأتمنى أن يعكف على تحقيق باقي أعماله ويستعيده لنا من الغربة التي عانى منها حيًا، وكتب عليه أن يعانى منها ميتًا.

قام الطنطاوي برحلته، في الوقت نفسه الذي قام فيه الطهطاوي برحلته إلى باريس، ولكن الأول بقي في روسيا، في حين عاد الطهطاوي، والأول طواه النسيان والتكران والثاني أصبح علمًا على عصره بأكمله.

اغترب الطنطاوي عن الوطن والديار، في زمن لم يكن المصري قد تذوق فيه طعم الاغتراب، ولا كواه الحنين إلى بر مصر.

قضى سنوات عمره في أبعد مكان عن مصر، في ذلك الوقت البعيد، والغربة أسلمته إلى ظلم بين، وحتى الآن لا أعرف من أين جاءت البداية، الغربة

التي أوصلته إلى ظلم، أو الظلم الذي رمى به إلى الغربية، أم أن كل عصر يكون فيه رجل واحد، يذبح كل أبناء جيله من أجل أن يمتد ظله إلى العصر كله...!؟

هذه هي المرة الثانية التي أكتب فيها عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي، كانت الأولى في كتابي: الكتاب الأحمر، رحلاتي في خريف الحلم السوفييتي، وهذه هي المرة الثانية التي أتمنى ألا تكون الأخيرة. وأحلم أن يصبح محقق هذا الكتاب ومترجمه هو من يستعيد لنا الشيخ «محمد عياد الطنطاوي» من الغربية.

يوسف القعيد

مدينة نصر- القاهرة

نوفمبر ٢٠١٧

دراسة

بين يدي القارئ الكريم إحدى المخطوطات المهمة للشيخ محمد عياد الطنطاوي، والمسماه بـ «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا»، وتعد من أروع بواكير الأدب العربي الحديث ذات الأهمية الثقافية والتاريخية، شأنها في ذلك شأن كتاب وصف باريس للشيخ رفاعة الطهطاوي، ونظراً لأن الكثير منا يعلم من هو الطهطاوي، في حين أن القليل منا يعلم من هو الطنطاوي، فإن هذه الدراسة تحاول التعريف بشخصية مصنف هذا المخطوط.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر ذاع صيت رجل أزهري مصري، ألا وهو الشيخ محمد عياد الطنطاوي أستاذ اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبرج St Petersburg، وأصبح له صلات وثيقة بمستشرق عصره حتى تتلمذ عليه نفر منهم، وصار اسمه مقروناً بتاريخ المشرقيات في روسيا؛ لذا فحري بنا أن نعرف من هو هذا الطنطاوي المغامر الذي ترك الأزهر وترك التدريس فيه، وترك مصر ورحل إلى بلاد كان يُعرف عنها قليلاً، وعاش فيها حياته إلى أن أدركته منيته هناك، فدفن في بطرسبرج بمقابر المسلمين؛ وماذا عن نشأته؟ ومن هم العلماء الذين تتلمذ على أيديهم؟ ومن هم تلاميذه؟ وماذا عن مؤلفاته؟ ومتى توفي؟ وأين دُفن؟

أولاً - مولده ونشأته وشيوخه

هو محمد بن سعد بن سليمان بن عياد المرحومي الطنطاوي الشافعي، والمعروف بالشيخ محمد عياد الطنطاوي، ولد في قرية نجريد - التابعة لمرکز طنطا - عام ١٢٢٥هـ - ١٨١٠م^(١)، وأما محلته مرحوم التي نُسب إليها فليست بدار مولده، ولكنها دار أبيه^(٢)، الذي كان يعمل بائعاً للأقمشة والصابون والبن، وفي محلته مرحوم تلقى علومه الأولية حيث حفظ القرآن، ومن ثم قصد طنطا لإكمال دراسته^(٣)، فظل يدرس هناك على أيدي طائفة من الأساتذة ثلاث سنين، وكانت حينئذ حافلة بالعلماء والفقهاء والقراء، حيث قرأ على الأستاذ الشيخ محمد الكومي شرح ابن قاسم في الفقه سنة ١٢٢٦هـ - ١٨٢١م، والأستاذ المصنف السيد محمد أبي النجار الذي قرأ عليه أيضاً الشرح سالف الذكر عام ١٢٢٧هـ - ١٨٢٢م، ونتيجة لشغوفه بالعلم ولّى وجهه شطر القاهرة عام ١٨٢٣م، وتعلم على أكابر علمائها^(٤)، فهو أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الجامع الأزهر «ت ١٢٧٦هـ - ١٨٢٥»^(٥)، وصاحب التصانيف في العلوم العقلية، ورائد منهج التدريس بالنزعة الأدبية^(٦)، حيث قرأ عليه أصول الكتب، ونظر في علوم النحو والفقه والبلاغة والأصول والمنطق والكلام.

(١) محمد أبو بكر، من بواكير الاستغراب: محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠-١٨٦١، مجلة أدب ونقد، ع ٣٥١، مايو ٢٠١٦، ص ١٢.

(٢) محمد عبدالغني حسن، محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠-١٨٦١، أعلام النهضة الحديثة، المجلد ٨، يونيو ١٩٤٦، ص ٢٧٥.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٢.

(٤) حسين علي محفوظ، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوروبا، مجلة كلية الآداب، العدد ٧، بغداد، نيسان ١٩٦٤، ص ص ٨١، ٨٠.

(٥) أحمد تيمور، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٤، دمشق، صفر ١٣٤٢، ج ٩، ص ٣٨٨.

(٦) محمد عياد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠، المسماه تحفة الأذكىء بأخبار بلاد روسيا، قدّم لها وحزّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١.

وقرأ تفسير البيضاوي على الشيخ حسن العطار^(١)، والمتوفي سنة ١٢٥٠هـ^(٢).

وعلى الرغم من طول رفقة الشيخ الطنطاوي للشيخ الباجوري إلا أن أثره في تكوينه كدارس لعلوم الغرب غير قوي، فالشيخ الباجوري من المحسوبين على المدرسة التقليدية الكلاسيكية، وكان من دعاة عدم التقارب مع الأوروبيين، بل إنه عندما كان طالبا فضل الرحيل من القاهرة إبان وجود الحملة الفرنسية، ولكن يرجع الأثر الكبير في دفع الشيخ الطنطاوي إلى دراسة الغرب ومعرفة علومهم - في البداية - إلى الشيخ العطار الذي رأى أنه من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف على ثقافتهم^(٣).

ومن أساتذة الشيخ الطنطاوي أيضا الشيخ الشبيني، والشيخ برهان الدين أبو المعالي، والشيخ مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي، شيخ المسجد الأحمدي بطنطا^(٤)، والشيخ إبراهيم السقا (١٧٩٧-١٨٨١) الذي حاز شهرة كبيرة في الخطابة بالأزهر، وتولاها ما يربو على العشرين عامًا، حتى صارت خطبه

(١) هو حسن بن محمد بن محمود العطار، والعطار أبوه وهو محمد بن محمود كتن، وكان أبوه عطارًا، ومن هنا جاءه هذا اللقب، ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦م)، ويرتد إلى أصول مغربية، ومن شيوخه الشيخ محمد الصبان، والشيخ العروسي، والشيخ عبدالرحمن المغربي... إلخ، وقد اتصل بالفرنسيين اتصالًا علميًا، فكان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية، خاصة علمي التاريخ والجغرافيا، ونادى بضرورة تطوير التعليم الأزهرى من حيث المناهج ومواد الدراسة، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية وبتدريس المواد الممنوعة، كما اتصل بالوالي محمد علي باشا، وتولى تحرير الوقائع العربية بين عامي ١٨٢٨ - ١٨٣٠، ثم تولى مشيخة الأزهر عام ١٢٤٦ هـ، وظل فيها حتى توفي سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥م). انظر: هنادي يوسف العجب الأمين، القضايا النحوية في حاشية العطار على شرح الأزهري للشيخ خالد الأزهرى: عرض ودراسة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان، ٢٠٠٥، ص ٧، ٨؛ سامي بدرأوي، الشيخ حسن العطار، رائد البحث الأدبي في مصر الحديثة: ١٧٦٦-١٨٣٥ / ١١٨٠-١٢٥٠ هـ، المجلة، ع ٩٩، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مارس ١٩٦٥، ص ٣١-٣٣.

(٢) حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨١.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨١.

تُحفظ وتُلقَى في مناسبات مشابهة لما قيلت فيه^(١).

وهناك شيخ آخر من أساتذة الطنطاوي الذين كان لهم تأثير قوي على الطنطاوي وانفتاحه على الثقافة الغربية، وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي (١٨١١-١٨٨٣) الذي كان عمله منحصراً في ميدان التعليم في المدارس الفنية التي كانت تديرها الدولة، أو في تصحيح مسودات المطبوعات العلمية في مطبعة بولاق الشهيرة، وكانت له صلة وثيقة بعلماء أوروبيين ممن تركوا أثراً طيباً في العلوم، مثل المستشرق إدوارد وليم لين^(٢)، صاحب القاموس العربي الإنجليزي الكبير^(٣).

وكان من زملائه في الدراسة: رفاة الطهطاوي، ومحمد قطة العدوي^(٤)، ومحمد الأشموني^(٥)، وعبد السلام المحلي الترماني، وعبد الرحمن الصفي، وعبد الهادي نجا الإبياري، وسرور الدمنهوري.. وغيرهم^(٦).

وفي عام ١٨٢٧م توفي والده، فترك الطنطاوي الدراسة في الأزهر تحت ضغط الظروف القاسية، وعاد إلى طنطا ومنحه أستاذه الشيخ مصطفى القناوي إجازة

(١) زكريا الرفاعي، أزهيون ليبراليون «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»، مجلة العصور الجديدة، ع ٧، مارس ٢٠٠٠، ص ١٤٢.

(٢) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣، انظر أيضاً: زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٣) جريجوري شرباتوف، الشيخ محمد عياد الطنطاوي أول أستاذ عربي في روسيا ورائد من رواد الدراسات في اللغة العامية المصرية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٥٥، نوفمبر ١٩٨٤، ص ٧٠.

(٤) هو محمد بن عبد الرحمن قطة العدوي، وُلد بالقاهرة ودرس العلوم الدينية والعربية في الجامع الأزهر، وحفظ القرآن وجوّده على أبيه، ووقع عليه الاختيار ليقوم بتصحيح الكتب العربية بمطبعة بولاق الأميرية التي أقامها محمد علي سنة ١٨٢١م، ومن كبار تلامذته الشيخ حسن بن محمد داود العدوي المالكي، والشيخ حسن بن أحمد رفاعي الهواري العدوي، توفي الشيخ محمد قطة في عام ١٢٨١هـ. انظر: محمد حسن محمد يوسف، الشيخ محمد قطة العدوي، مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط (جامعة الأزهر)، ع ٦، ١٩٨٦، ص ١٣٥-١٤٢-١٤٤.

(٥) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٦) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

في التدريس عام ١٨٢٨م^(١)، لكنه ما لبث أن عاد للقاهرة مجدداً عام ١٨٣٠م، ليعمل مدرساً بالأزهر، وكان له طابعاً خاصاً في التدريس، حيث حدا حذو شيخه حسن العطار، فأخذ يدرس لطلابه مقامات الحريري وديوان الحماسة لأبي تمام، ويشرح لهم غريب الألفاظ ويبصرهم بمواطن الجمال والقبح فيها^(٢)، ويعتبر أول من قرأ المعلقات والمقامات في حلقاته العلمية وهو في العشرين من عمره^(٣).

وبسبب عشقه لعلوم اللغة وآدابها اتهم بترويج البدع، إذ انصرف إلى الشعر والأدب بدلاً من الانصراف إلى علوم الفقه والحديث، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بطاعون سنة ١٨٣٦، وظل يعاني المرض عشرة أيام بلا نوم، وغاب عنه الإحساس والإدراك حتى سلمه الله، وعافاه بعد أسبوعين، وفي هذا يقول حين أشيع خبر موته شعراً^(٤):

تمنى أناس أن أموت وإن مت فتلك طريق لست فيها بأوحد
وإن أظهروا موتي فليس بمنكر إذا أظهر الشيطان موت محمد^(٥)

وأثناء اشتغال الشيخ عياد بالأزهر قام بالتدريس في المدرسة الإنجليزية بالقاهرة "مدرسة الإرسالية البروتستانتية" عام ١٨٣٥^(٦)، ونتيجة لازدهار الحركة العلمية في مصر خلال عهد محمد علي، واتجاه الأخير لجذب العقول

(١) محمد عبدالمنعم خفاجي، الأزهرى الذي وجه الاستشراق الحديث وعلماءه وجهة جديدة: الشيخ محمد عياد طنطاوي، مجلة الأزهر، السنة ٣٦، ج ٨ و ٩، شوال وذوالقعدة، ١٣٨٤، ص ٩٥٥.

(٢) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٣، ١٤٢، انظر أيضاً: عبدال موجود عبدال حافظ، أزهرى فى روسيا، مجلة الأزهر، المجلد الثاني والثلاثون، ج ٣، صفر ١٣٨٠، ص ١٩٣.

(٣) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

(٤) أبو الحسن الجمال، من محلة مرحوم إلى ربوع بطرسبورغ الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة الوعي الإسلامى، أبريل، ع ٦١٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ص ٦٤، ٦٥.

(٥) محمد عياد الطنطاوي، مصدر سابق، ص ٩.

(٦) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

الأوروبية للعمل بمختلف الوظائف بمصر، بدأت تفد إلى مصر مجموعات من المستشرقين في مختلف المجالات، ونظراً لحاجتهم إلى تعلم اللغة العربية بدأت العلاقات بين الشيخ عياد ومجموعة من المستشرقين بغرض تعليمهم اللغة العربية^(١) مثل الدكتور «ر. فراهن» «R. Frahn» الألماني الذي كان أبوه مدرساً للمشريات في كلية قازان، والدكتور «بيرون» A. Perron الفرنسي الذي كان يقوم بتدريس الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية، وكان يجيد العربية كتابةً وقراءةً وحديثاً، والأستاذ «فليمانس فرنيل» F. Fresnel الفرنسي الذي ترجم لامية العرب للشنفري إلى الفرنسية بمساعدة أستاذه الشيخ الطنطاوي، والذي علم استاذة اللغة الفرنسية^(٢). وكتب فرنيل يقول «إنه مدين للطنطاوي الشيخ المصري الوحيد، الذي يُدرّس لغته بمحبة واهتمام، ويدرس كتب الآداب العربية القديمة»^(٣). كذا تعرف الشيخ الطنطاوي على «جوستاف ويل» «G. Weil» الذي كان مدرساً لتاريخ المشريات في كلية هيدلبرج^(٤)، وله كتاب في تاريخ الخلفاء في ثلاث مجلدات، وتاريخ العباسيين في مصرفي مجلدين^(٥).

ثانياً. سفر الشيخ الطنطاوي إلى روسيا:

في عام ١٨٠٤ صدر مرسوم منظم للجامعات الروسية بمقتضاه أُحدثت أقسام لتدريس اللغات الشرقية فيها، وكان لهذا الحدث أثر كبير على مستقبل الدراسات الاستشراقية عموماً والاستعرابية منها خصوصاً^(٦)؛ لأن تاريخ

(١) أبو الحسن الجمال، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣، انظر أيضاً: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٥) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٦) عبدالرحيم العطاوي، الشيخ محمد عياد الطنطاوي والمدرسة الاستشراقية الروسية، أعمال الندوة التكريمية للعلامة محمد بن تاويت الطنجي، مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، مايو ١٩٩٧، ص ص ٢١٧، ٢١٦، انظر أيضاً: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

الاستعراب الروسي في العصر الحديث. على حد تعبير كراتشكوفسكي^(١) - ارتبط بهذا المرسوم ارتباطاً وثيقاً؛ لأنه أدخل تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدارس العليا، وأسس الأقسام الخاصة لهذه اللغات، وقد شغلت اللغة العربية المكانة الأولى^(٢)، وأخذت هذه الأقسام تستضيف عدداً من الأساتذة المستشرقين وخصوصاً من ألمانيا وفرنسا، وحينذاك كانت جامعة العاصمة «سان بطرسبرج» تمثل أهم المراكز الاستشرافية في العالم، حيث تمّ تدريس اللغة العربية فيها منذ عام ١٨١٨م، ويرجع الفضل في ذلك إلى مكتبة المتحف الآسيوي - والتي تُعرف حالياً بملحقة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. بسان بطرسبرج، والتي تمثل إحدى كبريات المكتبات الاستشرافية في العالم^(٣).

وبافتتاح قسم اللغة العربية في جامعة سان بطرسبرج أصبح الفرنسي «ديماج» Demage - أحد تلاميذ المستشرق الفرنسي «سيلفيسترو ساسي» Sylvester de Sassy - أول رئيس لقسم اللغة العربية في الجامعة خلال الفترة (١٨١٩-١٨٢٢)، وأعقبه في هذا المنصب الأديب البولوني «سينكوفسكي» Senkovskÿ ، الذي ظل يرأس القسم مدة خمسة وعشرين عاماً،

(١) ولد يوليانونوفتش اغناطيوس كراتشكوفسكي في ١٦ مارس ١٨٨٣، بمدينة فيلنيوس البلطيقية، وقضى جزءاً من طفولته في مدينة طشقند بأوزبكستان إثر تعيين والده ناظرًا عامًا لمدارس آسيا الوسطى، ثم تعيينه مديراً للمكتبة العمومية بفيلنيوس عام ١٨٨٨، ورئيساً لمصلحة الآثار التاريخية، التحق بكلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج عام ١٩٠١، وانكب على دراسة اللغات الشرقية كالعربية، والفارسية، والتركية... إلخ، ودرس العلوم العربية على يد الكسندر فيسلوفسكي Veselovski، ومن ثمّ عدّ شيخ المدرسة الاستعرابية الروسية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتوفي في يناير ١٩٥١. انظر: ابن ميسة رفيقة، الأبحاث الاستشرافية لكراتشكوفسكي في مجال تحقيق التراث العربي، من أعمال الملتقى الثاني حول مناهج تحقيق النصوص بين الشرق والغرب، جامعة الجلفة، المجلد الخامس، الجزائر، ٢٠١٣، ص ص ٦٤، ٦٧

(٢) فارس عزيز المدرس، جهود المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في تاريخ الأدب العربي ١٨٨٣-١٩٥١، ع ٦٤، مجلة آداب الرافدين، ٢٠١٢، ص ص ٦٢-٦٣.

(٣) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ص ٢١٧، ٢١٦، انظر أيضاً: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

خلال الفترة من ١٨٢٢ إلى عام ١٨٤٧^(١)، ووقتذاك ازداد الاهتمام باللغات الشرقية في الجامعات الروسية وخصوصاً جامعة سان بطرسبرج التي كانت تُدرس فيها اللغات العربية، والصينية، والمغولية، والتركية، والفارسية، وذلك بفضل وزير المعارف في ذلك الوقت (م. بوشكين)، ورأى هذا القسم -تماماً للفائدة، ولتكون دراسة اللغات الشرقية متمشية مع دراسة تاريخ أقطارها- ضرورة الاستعانة بأساتذة من الشرق نفسه فهم خير من يقوم بتعليم اللغات الشرقية للطلاب الراغبين من الروسيين وغيرهم من الأوروبيين^(٢).

وبناء عليه كلفت روسيا قنصلها في القاهرة ليقوم بهذه المهمة، وأن يتفق مع من يعرف فيه القدرة على القيام بهذه المهمة^(٣)، فوقع الاختيار على الشيخ عياد الطنطاوي، إذ طلب قنصل روسيا الدوق «مديم» من والي مصر محمد علي باشا إعاره الشيخ عياد الطنطاوي لمعهد اللغات الشرقية لتدريس اللغة العربية، ولاقى هذا الطلب القبول من محمد علي باشا فاستدعى إلى ديوانه الطنطاوي وصرح له بالسفر، وطلب منه ضرورة تعلّم اللغة الروسية؛ لأنه مشغول بجلب الألسن الغربية إلى مصر ليعرف مدى التقدم العلمي والاجتماعي الذي وصلت إليه بلاد الروس^(٤)، ومن الجدير بالذكر أن الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ الطنطاوي لإقناع الأخير بالسفر كان

(١) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢١٦، أنظر أيضاً: بين المخطوطات العربية من القاهرة حتى مقبرة فولكوف في بطرسبرج، ترجمة: محمد منير مرسي، المجلة، ع ٨٧، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مارس ١٩٦٤، ص ٩٩، إبراهيم إبراهيموف، تاريخ اللغة العربية في روسيا وجامعة اللغات الحكومية ببياتيجورسك خاصة، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، ع ٣٦، أكتوبر ٢٠١٠، ص ٥٨١.

(٢) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٣) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦.

(٤) تقديم د. محمد عيسى صالحية في كتاب «رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-

١٨٥٠»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٣.

«بطرس بكتي»^(١) Bokty ترجمان القنصلية الروسية بالقاهرة^(٢)، وكان له الدور البارز في جميع المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر الطنطاوي إلى روسيا^(٣). وعلى أية حال غادر الطنطاوي القاهرة في ٢٤ محرم ١٢٥٦هـ، ٢٦ مارس ١٨٤٠م إلى الإسكندرية، حيث نزل في ضيافة قنصل روسيا فيها «مديم»، وفي ٢٦ مارس ركب باخرة نمساوية إلى اسطنبول، ومنها إلى أوديسا، وفي يوم ٢٩ يونيو ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج^(٤)؛ ليتبوأ مقعداً بين أساتذة اللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج، وقوبل الشيخ هناك بالحفاوة، وكان له مرتب سخّي، واشتغل منذ ٢ يوليو ١٨٤٠ بالتدريس في معهد اللغات الشرقية، وبالعمل في ديوان الخارجية في بطرسبرج^(٥)، وقضى الطنطاوي ما يقرب من سبع سنوات مجاهداً في تدريس اللغة العربية، ثم عُين بعد ذلك في سنة ١٨٤٧م أستاذاً للكرسي اللغة العربية في جامعة بطرسبرج، وعين المستشرق الروسي «نفروتسكي»^(٦) مساعداً له^(٧)، وظل أستاذاً لهذا الكرسي طيلة أربعة عشر عاماً (١٨٤٧-١٨٦١)^(٨)، ومن ثم كان الشيخ الطنطاوي الرئيس الثالث لقسم اللغة العربية في جامعة بطرسبرج، بعد

(١) طرس بكتي كان مندوباً قنصلياً Agent Consul لدولة روسيا في مصر، وكان معروفًا بقنصل المسكوف في مصر، وهو من أسرة سورية قديمة اشتهر أفرادها بحذق اللغات الأجنبية، وكان بينه وبين الشاعر شهاب الدين، شاعر عباس الأول، صلة ودّ، بدأها بطرس نفسه بزيارة للشاعر على غير معرفة، فمدحه الشاعر بأبيات في ديوانه. انظر: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٧، هامش ١.

(٢) كريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٥.

(٤) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦. انظر أيضاً: رجاء النقاش، الطهطاوي والطنطاوي وأحزان الوطن، مجلة الدوحة، ع ١٠، أكتوبر ١٩٧٦، ص ٣٣.
(٥) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦، انظر أيضاً:

Vladimir Bobrovnikov, Al-Azhar and Shari'a Courts in Twentieth--
Century Caucasus, Middle Eastern Studies, Vol.37, No.4, Oct.2001, p.4

(٦) عبدالوجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٧) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٧، انظر أيضاً: راجية إسماعيل أبو زيد، الزعامة الفكرية للأزهر إبان الحكم العثماني، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع ٤٢، يناير

٢٠٠٨، ص ٤٥١.

الفرنسي «ديماج»، والبولوني «سينكوفسكي».

كان الشيخ عياد الطنطاوي يدرّس قواعد اللغة، ويشرح أمثال لقمان، ويقرأ قطعاً من مؤلفات تاريخية، ومن مقامات الحريري، كما كان يدرّس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط الشرقية، وقراءة المخطوطات، والمحادثة باللغة العربية، وزاد على ذلك عام ١٨٥٥م تدريس تاريخ العرب^(١).

وفي حقيقة الأمر كان لوصول الشيخ الطنطاوي إلى روسيا أصداء قوية في الصحافة الروسية، والتي رحبت بقدومه معتبرة أن «شهرته منتشرة في أوروبا بين الرخالة الذين كانوا يدينون بالعرفان لكتاباته التي كان لها دور كبير في نجاحهم واكتشافاتهم»^(٢)، كما حظي الطنطاوي بعناية متميزة في روسيا، إذ تم تعيينه مستشاراً في الدولة، وقُد وسام ستانيسلان، ووسام حنا، بسبب امتياز التلاميذ في البحث، كما قُلد خاتماً من الأمانس^(٣)، وكانت وفادة الشيخ الطنطاوي في أهدافها في المرتبة الثانية بعد بعثة رفاة الطنطاوي إلى فرنسا ولندن، والتي ضمنها كتابه: «تخليص الإبريز في تخليص باريز»، فإذا كان رفاة الطنطاوي رائد عصر التنوير من خلال بعثته في أوروبا الغربية فإن محمد عياد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته إلى أوروبا الشرقية^(٤).

وظل الطنطاوي في روسيا إلى أن جاور ربه، ولم يؤثر ذلك في شيء من دينه وعقيدته، كما يؤخذ من قوله في أول قطعة شعرية أرسل بها إلى أحد أصدقائه بمصر - ولعله الشيخ محمد قطة العدوي.

أنا بين قوم لا أدين بدينهم أبدا ولا يتدينون بديني^(٥)

(١) أبو الحسن الجمال، مرجع سابق، ص ٦٦ .

(٢) عبدالرحيم مروان الوهابي، دور الأساتذة العرب في تطور الاستعراب الروسي، الشيخ محمد عياد الطنطاوي أنموذجاً، مجلة الدفاع (القوات المسلحة السعودية)، مجلد ٣٦، ع ١٠٩، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٧٥.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٥.

(٤) تقديم د. محمد عيسى صالحية لكتاب «رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠ - ١٨٥٠»، مرجع سابق، ص ١٤.

(٥) اغناطيوس كراتشوفسكي، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة الزهراء، ع ٧، يوليو ١٩٢٤، رجب ١٣٤٣، ص ٤٢٢.

ثالثاً - تلاميذه :

تخرّج على يد الشيخ الطنطاوي فئة كثيرة من المستشرقين، وعلى رأسهم المستشرق الفنلندي الأصل (والن G. A. Wallin) الذي أسهم بنصيب كبير في الأدب العربي هو وغيره ممن تعلموا في جامعة بطرسبرج على يد الشيخ الطنطاوي^(١)، وبسبب جهود الأخير في حثّ والن على ضرورة البحث العميق في دين الإسلام ودراسة مبادئه وجوهره وركائزه ومقاصد شريعته، وضرورة زيارة البلدان العربية للاطلاع عن كثب ومعينة الحقائق، كل هذا كان سبباً في اعتناق والن للإسلام وحجه إلى البيت الحرام، وخدمة دين الحق والتعريف به وبحضارته الزاهية، وأصبح اسمه «الحاج عبد الولي»^(٢)، وكان من رؤاد الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، وساح في مصر وسوريا زمنًا طويلاً^(٣)، ودار بينه وبين أستاذه عدة رسائل جمعها والن وطبعها مترجمة إلى اللغة الأسوجية، كما أن هناك مجموعة أخرى مخطوطة في مكتبة جامعة هلسنكي Helsinki، والتي أصبحت فيما بعد تعرف بـ «هلسينجفور» Helsingfors عاصمة فنلندا^(٤).

ومن تلاميذ الشيخ الطنطاوي أنطوني موخلينسكي الذي قرأ عليه جملة من الكتب العربية واللطائف الأدبية، ومنها ديوان عبدالرحمن الصفتي، وكذا المستشرق نافروتسكي Navrotsky، وكروكاس^(٥)، ونقولاً موخين Mukhin Nicola وكيل القنصلية الروسية، ورودلف فرين Fren Rudolf ابن المستشرق الروسي فرين، وبسببهما سافر الطنطاوي إلى روسيا عام ١٨٤٠^(٦).

(١) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٢) عبدالرحيم مروان الوهابي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٣) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

(٤) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥) حسين علي محفوظ، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوروبا، مجلة كلية الآداب، بغداد، نيسان ١٩٤٤، العدد ٧، ص ٨٣.

(٦) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦؛ محمد صبري الدالي، في تطور رؤية الأنا للآخر (روسيا الحديثة في الكتابات التاريخية المصرية ١٥١٧-١٩١٧، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٤٨.

أما موخين فتخرج في كلية التاريخ والأدب الشرقية في جامعة بطرسبرج، وعمل في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية، وعين مترجماً في القنصلية العامة الروسية في مصر عام ١٨٢٥، ويقول عنه الطنطاوي «هذا الترجمان صاحب في مصر خلال عدة أعوام وقرأ علي شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها، وله دراية بكثير من اللغات كالفرنسية والتركية»، وقد كُلف موخين باصطحاب الطنطاوي من إسطنبول إلى روسيا، و«فرين» هذا ورث الاستشراق عن أبيه وأمد المتحف الآسيوي بروسيا بالعديد من المخطوطات والنقود القديمة^(١).

ومن تلاميذ الطنطاوي في الأزهر: يوسف الأسير السوري (١٨٨٩م)، وإبراهيم مرزوق (١٨٨٦م) وعبدالهادي نجا الأبياري^(٢).

رابعاً - مؤلفاته

يُعد الشيخ محمد عياد الطنطاوي من أعلام النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر للطريقة التي انتهجها في التدريس بالأزهر؛ إذ اتجه إلى دروس الشعر والأدب واللغة، لذا عدّه بعضهم من النحويين؛ لأنه ترك بعض الكتب المخطوطة في اللغة العربية مثل كتاب: «حاشية على متن الزنجاني في الصرف»، والمشهور بمتن الغزي، كتبها بخط يده، و«حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهري على متنه المسمى بالأزهرية في علم النحو»، كتبها بخط يده عام ١٢٥٢هـ، و«حاشية على كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي»^(٣)، و«ختم على شرح القطر لابن هشام»^(٤).

بالإضافة إلى «غنية المريد في علم التوحيد» نظماً، و«حاشية على شرح العلامة برهان الدين أبي المعالي إبراهيم السقا» «أحد شيوخه» على منظومة

(١) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

(٣) عبدال موجود عبدال حافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤، ١٩٣؛ انظر أيضاً: أحمد تيمور، مرجع

سابق، ص ٣٨٨.

(٤) جريجوري شرياتوف، مرجع سابق، ص ٧٢.

السيد محمد بليحة»، وعنوان الشرح «التحفة السننية في العقائد السننية»، ومنها: «حاشية على رسالة شيخه إبراهيم البيجوري في العقائد»، ومنها: «حاشية على منظومة الشيخ السلموني»، وفيها التزم السجع في جميع جملة^(١).

ومن مؤلفاته أيضًا: تاريخ حياته بقلمه، ولم ينجز منه إلا قطعة صغيرة نشر أصلها العربي ومعه ترجمة ألمانية، و«أحسن النخب في معرفة لسان العرب»، وهو كتاب في العامية المصرية، طبع ليبسك عام ١٨٤٨، ويتضمن هذا الكتاب ألفاظ وجمل ورسائل قصص وأغان مصرية عامية، ومعها ترجمتها الفرنسية، و«منتهى الآداب في الجبر والميراث والحساب»، توجد نسخة بخط المؤلف في مكتبة جامعة بتروغراد (رقم ٨٢٠) كتبت سنة ١٢٤٥ هجرية، و«منظومة في البيان نظم فيها متن السمرقندية»، وكتاب عن تاريخ روسيا باسم «تحفة الأذكياء في أخبار بلاد روسيا عام ١٨٥٠»^(٢).

وهناك نوع آخر من مؤلفات الشيخ الطنطاوي متصل أساسًا بالدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية، والتي تخضع لاهتمامات الاستشراق آنذاك كدراسة اللهجات العربية والحكايات والأمثال الشعبية، ونذكر من بين هذه المؤلفات على الخصوص:

- حال الأعياد والمواسم في مصر - مخطوط - مكتبة بتروغراد.
- كتاب الحكايات المصرية العامية - مخطوط - مكتبة بتروغراد (رقم ٧٤٥)، ومعها ترجمة الباب الأول من كتاب «كلستان» لسعدي الشاعر الفارسي.
- التحيات المعتادة في كلام العامة.
- مجموعة أمثال عربية مصحوبة بترجمتها الروسية.

(١) أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٣٨٨؛ انظر أيضًا: اغناطيوس كراتشوفسكي، مرجع سابق، ص ٤٢٦.

(٢) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٥، ١٤٦؛ اغناطيوس كراتشوفسكي، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

• قواعد اللغة العربية العامية (المصرية)^(١).

ولطنطاوي كتاب عنوانه «النحو العربي» أو «قواعد اللغة العربية الفصحى»، وهو أول كتاب كتبه كاتب عربي باللغة العربية للتدريس في جامعات روسيا ومعاهدها العالية، وهو موضوع اهتمام المستشرقين، ونال شهرة كبيرة في كل دوائر الاستشراق الأوروبي^(٢)، وكانت مقالاته تنشر على صفحات بعض المجلات الاستشراقية مثل:

- Journal Asiatique
- Bulletin historique et philologique
- Melanges Asiatique^(٣)

خامسا - وفاته:

في سبتمبر عام ١٨٥٥ أصيب الشيخ الطنطاوي بشلل في رجليه، وظل في صراع طويل مع هذا المرض، وظل في منزله رهين المرض، وكان يشرف على العناية بالشيخ زوجته المصرية «أم حسن» التي أنجبت له طفلا في ١٩ مايو ١٨٥٠، أسماه «أحمد»^(٤).

وبينما المرض يشدّ على الشيخ طنطاوي توفيت زوجته المصرية عام ١٨٦٠، وابنه في سن العاشرة، ووقتئذ طلب الشيخ طنطاوي التحاق ابنه أحمد بإحدى المدارس الوسطى، على حساب الدولة، وبالفعل التحق أحمد بإحدى المدارس في ١٩ نوفمبر ١٨٦٠، ولكن الحالة الصحية للشيخ ازدادت سوءًا فأحيل للتقاعد في ١٩ يناير ١٨٦١، ثم وافاه الأجل في يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ١٢٧٨هـ - ٢٩ أكتوبر ١٨٦١، ووري جثمانه الثرى في مقبرة المسلمين بقرية فولكوكفا في سانت بطرسبرج بجوار مقبرة زوجته المصرية، وتسمى المقابر التي دفن في وسطها مقبرة التتر، ومن ثم عين نفروتسكي خلفًا له في كرسي اللغة العربية بالجامعة، وصرفت الدولة معاش الشيخ إلى ابنه أحمد، واختير نفروتسكي وصيًا له، وفي عام ١٨٧١ باع أحمد مجموعة والده الخطية إلى

(١) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٨.

(٣) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٤) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٧.

هكذا كان محمد عياد الطنطاوي وكثير من جيله نموذجاً عملياً للعلاقة مع الآخر دون تنظير أو صخب نظري لا طائل من ورائه، وما زال تراثهم وهو على وجه خاص في حاجة إلى إعادة للممته من مكتبات العالم.

سادساً - وصف المخطوط :

بعد تناولنا لنشأة وحياة الشيخ الطنطاوي وسفره إلى روسيا وأسأذته وتلاميذه ووفاته، ننتقل إلى إعطاء نبذة مبسطة عن مخطوط^(٢) « تحفة الأذكيا بأخبار مملكة روسيا»، والذي جاء أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم.... حمدا لمن سير سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقيض له أعوانا يعضدونه وأنصارا يحمونه وصلاة وسلاما على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده ووده الغرباء... إلخ».

ثم ذكر عنوان المخطوط الذي نحن بصده عندما قال: «وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألتني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجم من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتاباً، أودع فيه ما يعذب مذاقاً، ويطيب شراباً من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطرف استحسانية، وملح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت بالامثال، فشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكيا بأخبار مملكة روسيا».

وختم الطنطاوي مخطوطه بقوله: «والله أسأل وبنييه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية، والعتبة العثمانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحدوا عن سبيل الاعتساف فما قصدي إلا التبصير ولا مرامي التذكير. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

(١) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٧، انظر أيضاً: حسين علي محفوظ، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٢) المخطوط قدم صورته لنا الدكتور حسين الشافعي، رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم، والذي عمل على جمع تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي إلكترونياً، وقدمه للمهتمين .

اسم النسخ: مصنفه الفقير محمد عياد المصري الطنطاوي .

عدد الأوراق: النسخة تبدأ من اللوحة ١ وتنتهي عند اللوحة ١٠٩.

مقاس اللوحة: ٢٥ × ١٧ .

الخط: نسخ واضح .

تاريخ النسخ: أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ / أوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠م .

حالة النسخة: لا بأس بها، وفي ركن كل صفحة تعقيبية تدل على ترتيب الصفحات وتسلسلها، وليس على صفحاتها ترقيم.

مكان المخطوط: مجموعة كراتشكوفسكي بالمكتبة الشرقية بلنجراد تم إعادة أرشفتها في ٢٧/١٢/١٩٢٨، الخزانة رقم ٤٧، تحت رقم ١٧، محمد بن عياد الطنطاوي، أستاذ اللغة العربية بجامعة بيتربورغ، وصف روسيا، ١٨٥٠، بيتربورغ، من مجموعة الأكاديمي يو. كراتشكوفسكي، إعادة طبع (١٩٧٤).

الترقيم القديم للمخطوطة (٢٢، ١، ٢).

يقول جريجوري شرباتوف: هناك بعض المخطوطات الفريدة للشيخ الطنطاوي نذكر منها النسخة الأصلية لأهم آثاره الأدبية تحت عنوان «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا»، وتقع في ١١٢ ورقة^(١)، ويذكر أ.د. محمد صبري الدالي (أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة حلوان) بأن هذه النسخة موجودة في مكتبة جامعة بطرسبرج^(٢)، وهي النسخة التي نحن بصدها، وهي بخط المصنف؛ لذا قمنا بإعداد تحقيق لها ودراسة مفصلة عن حياة ونشأة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ومن الجدير بالذكر أن هذه النسخة تم الحصول عليها من د. حسين الشافعي (رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم، ورئيس مجلس إدارة دار أبناء روسيا)، وله يرجع الفضل الأكبر في بعث سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، إذ جمع تراثه ومخطوطاته جميعاً وأهداها للباحثين ولراكز الدراسات العربية،

(١) جريجوري شرباتوف، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) محمد صبري الدالي، مرجع سابق، ص ١٥٠.

كما نظم احتفالاً دولياً في سبتمبر ٢٠١٣ بالقاهرة بالتعاون مع مركز تاريخ مصر المعاصر شارك فيه باحثين من مصر ودول عربية، ومن روسيا. أعاد الدكتور حسين الشافعي لبلد نجريج بمحافظة الغربية فضل المنشأ للشيخ عياد الطنطاوي فنظم في القرية في مارس ٢٠١٦ احتفالاً مهيباً شارك فيه الآلاف من أهالي القرية، ووفد إليها من القاهرة ومن روسيا جمع غفير أزيح فيه الستار عن تمثال مهيب للشيخ محمد عياد الطنطاوي، كما أصدر الدكتور حسين الشافعي عن حياة الشيخ عياد الطنطاوي وأعماله كتابين هامين: (مخطوطة تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، إصدار ٢٠١٧، الشيخ محمد عياد الطنطاوي أول معلم للعربية بالبلاد الروسية، إصدار ٢٠١٣).

والكتاب الأخير تم إصدار طبعة ثانية منه في ٢٠١٧.

ويستكمل شرياتوف قوله بأن النسخة الثانية المبيضة من المخطوط سالف الذكر تحفظ في إستانبول في مسجد رضا باشا في رميلي خصار، وتقع في ١٩٣ ورقة^(١)، وقد أرسلها الشيخ عياد الطنطاوي للسلطان عبدالمجيد الأول^(٢)، وهي النسخة التي قدم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية^(٣)، ولكن لم أستطع الحصول على النسخة الأصلية لنسخة إستانبول، ومن خلال الاطلاع على النسخة المطبوعة لها، وجدت هناك اختلافات عن النسخة الأصلية التي نحن بصدها، فعلى سبيل المثال، حملت نسخة إستانبول عنوان: «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا»، وقد وضع د. عيسى صالحية صورة أصلية من الغلاف الخارجي للمخطوط، في حين جاء عنوان النسخة الأصلية «بيتابورغ» عنوان: «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا»، إضافة إلى وجود اختلافات داخل المخطوط نفسه.

(١) جريجوري شرياتوف، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) محمد صبري الدالي، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٣) محمد عياد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠، والمسماه بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، قدم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.

ويعتبر المخطوط من أهم مؤلفاته، وهو كتاب يجمع بين فن الرحلات والسير الذاتية، وإلى جانب تناول الكتاب لرحلة الطنطاوي من مصر إلى روسيا، ووصف رحلاته في روسيا وفي دول البلطيق وفنلندا ومن حولها خلال فترة إقامته في روسيا، ويتناول الكتاب وصفاً لجغرافية روسيا وتاريخها وملامح الحياة الاجتماعية والثقافية والعادات والتقاليد السائدة في روسيا، أي دراسة مفصلة لتاريخ روسيا الحديث، وفي الوقت نفسه لم يكن المخطوط سرداً تاريخياً أو جغرافياً بل كان وصفاً دقيقاً حياً بيئياً لرحلته من القاهرة إلى بطرسبرج وزياراته لأقاليم روسيا وانفعالاته مع الإقليم والشعب فيها خلال إقامته طيلة العشر سنوات التي قضاها هناك منذ هجرته عام ١٨٤٠ حتى تاريخ تأليف الكتاب عام ١٨٥٠.

والمخطوط عبارة عن وصف لرحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوي التي بدأت في ٢٦ مارس ١٨٤٠ من القاهرة حتى وصوله إلى بتربورج في ٣٠ مارس ١٨٤٠ غطت ٢٧ ورقة (٥٤ لوحة) من الكتاب، ثم ثلاثة أبواب اتصل الأول منها بمنشأ الروس وأصل ولاية نوفغورد Novgord، وأصل ولاية كييف Kiev، والباب الثاني يتناول تاريخ بتربورغ الطبوغرافي والاثنوغرافي والطبيعي والبشري، فكان دراسة تاريخية، جغرافية جيولوجية، وقد جعل في الباب الثاني ثلاثة فصول ركزت على حياة بطرس الأكبر وإنجازاته وإصلاحاته، ودوره في نهضة روسيا وتقدمها في كافة المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، ثم عرضاً للأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية في بتربورغ خصوصاً وروسيا عامة في عهد خلفاء بطرس الأكبر، متناولاً إنجازات كل قيصر في العمارة والإنشاءات والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وأما الباب الثالث فتناول عادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم وعادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة وأعيادهم والتنظيمات الاجتماعية وأديانهم وخطوطهم ونقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك، واختتم الباب بتناول اللغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها واليها.

لغة المؤلف :

من المتعارف عليه أن سمة التأليف في مصر بداية من العصر الأيوبي وصولاً للعصر العثماني كانت تعتمد بشكل قوي على اللغة العامية المصرية، وهي صفة يتسم بها الشيخ محمد عياد الطنطاوي، حيث اعتمد في مخطوطه هذا على اللغة العامية نتيجة تأثره بسمة هذه العصور في التأليف.

وكانت أبرز الظواهر الإملائية المتبعة في الرسم الذي جرت عليه المخطوطة، مخالفة المصنف في كتابة الأعلام للشائع المألوف على سبيل المثال: يرسم (أمريكا) هكذا (أمريقا)، و (موسكو) هكذا (موسقو)، و (باريس) هكذا (باريز)... إلخ.

استعمال اللهجة العامية مع عدم مراعاة القواعد النحوية والإملائية في بعض الكلمات، واشتهر بتبديل بعض الحروف في بعض الكلمات على سبيل المثال: تبديل حرف الطاء بدلاً من التاء كما في كلمة (فستان) رسمها هكذا (فستان)، وتبديل حرف الصاد بدلاً من السين كما في كلمة (بوسطة) رسمها هكذا (بوصطة)، بالإضافة إلى تسهيل وإهمال الهمزة المطرفة، مثل: الفقرا، الوزرا، الشتا،.... إلخ.

أيضاً مخالفة المصنف في كتابة أسماء الشهور للشائع المألوف مثل: كتابة مارس هكذا (مرس)، وكتابة سبتمبر هكذا (سنتابر)... إلخ.

منهج التحقيق :

- شرت في سياق النص إلى كل صفحة (وليست كل ورقة) من صفحات النسخة المخطوطة، وذلك حتى يرتبط النص المحقق بأصوله الخطية، وتسهل مراجعة النسخة عند الضرورة.

- كتبت النص حسب الرسم الإملائي المعاصر مع العناية بعلامات الترقيم.

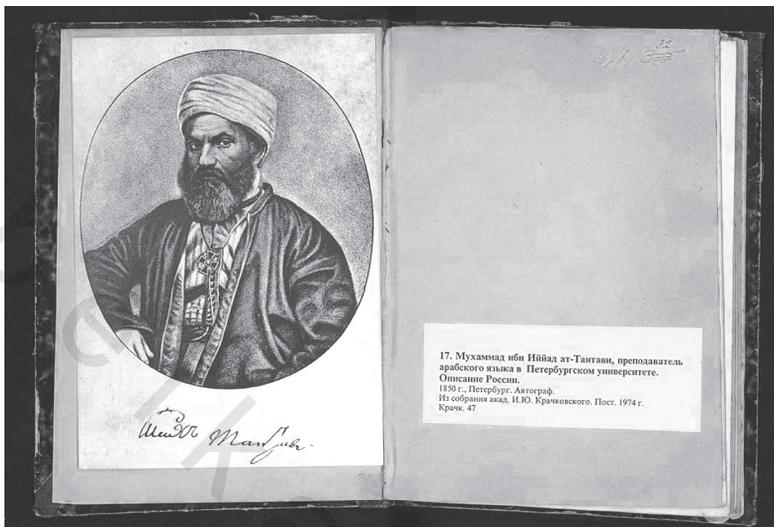
- تخريج ما في المخطوط من أبيات شعرية.
- قمت بتوضيح بعض المصطلحات والألفاظ الغامضة.
- عزوت الآيات القرآنية إلى السور مع ذكر أرقامها.
- ترجمة مختصرة للأعلام - دون المشهور منهم - الوارد ذكرهم في الكتاب، تشتمل على الاسم والنسب والشهرة وتاريخ الوفاة، مع ذكر مصادر الترجمة.
- ذيلت الكتاب بقائمة مصادر ومراجع التحقيق.

وبالله التوفيق،،،

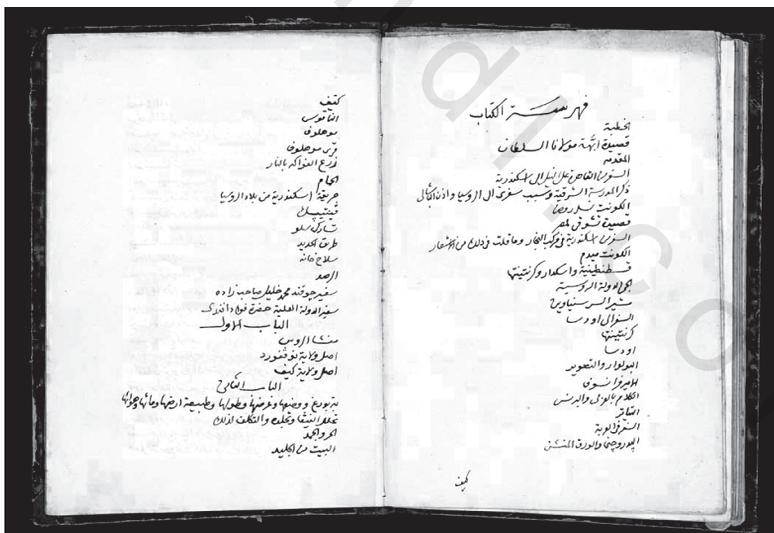
د. علي متولي أحمد

باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر

دار الكتب المصرية



صورة توضح مكان المخطوط في المكتبة الشرقية ببيطرسبرج.



صورة من الصفحة الأولى من فهرست الكتاب.

obeikandi.com

١/١) بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

حمداً لمن سیر سیرة العالم في أقصى أقطار العالم، وقیض له أعواناً يعضدونه وأنصاراً يحمونه، وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده، ووده الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء، وعلى آله المهاجرين والأنصار، أثناء الليل وأطراف النهار.

أما بعد؛ فيقول محمد بن سعد عياد - أجراه الله على مناهج الرشاد: العلم رأس مال الأكياس، والجهل لكل ضرر أساس، والعلم لا حد له ولا نهاية، وبحره لا سيف له ولا غاية، والمشتغل به كل يوم يدرك جديداً ويستتبط بديعاً فريداً^(١):

ما حوى العلم جميعاً رجل لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العلم بعيداً نيّله فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسّفار، وجوب البراري والبحار، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد، والنظر فيما أيدعوه من البدائع التي ليس لها نفاذ، وأما من لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحجر، وكان ضيق العطن، قليل الحجر، كما قلت حين سافرت:

ومن لم يغترب في كل قطر فكالطفل الذي في حجر أمه
تراه ساذجاً لا علم يدري ويبكي حيث فارقتها لهمة

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر، ولم يبالوا لفرط نفعه بما فيه من الخطر، وقد كان ذلك ديدن الأفاضل ودأب الأمثال، وانظر

(١) منسوب للإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عند: الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٥.

أيها اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني^(١)، بقول الشاعر:
(البيسط)

٢/١ وأيوماً بجزوى ويوماً بالعقيق
ولقول الحريري^(٢):

أنافي العالم مثله
ولأهل العلم قبله
غير أنني كل يوم
بين تعزيس ورحله^(٣)
وغريب الدار لو ح
ل بطوبى لم تطب له

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي^(٤): (الكامل)

يا واقفاً^(٥) بين الفرات ودجلة
عطشان يطلب شربة من ماء
إن البلاد كثيرة أنهارها
وسخاها فغزيرة الأنواء
ما اختلت الدنيا ولا عند الندى
فيها ولا ضاقت على العلماء
أرض بأرض والذي خلق الوري
قد قسم الأرزاق في الأحياء

(١) هو: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين. توفي سنة ٧٩١هـ. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٥٠؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بآباء العمر، تحقيق: د. حسن حشبي، ج ١، المجلس الأعلى للثقون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ص ٣٨٩-٣٩٠، وسماه فيه محمود ولعله سهو؛ وجلال الدين السيوطي؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (تحقيق) محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٢، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٩٦٤، ص ٢٨٥؛ وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (تحقيق) عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج ٨، دار ابن كثير، ط ١، دمشق، بيروت، يناير ١٩٨٦، ص ص ٥٤٧-٥٥٠.

(٢) ورد البيت عند الثعالبي منسوباً لأبو محمد بن أحمد الخازن في: الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج ٣، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٢٨. ضمن أخبار صاحب إسماعيل بن عباد.

(٣) الحريري: مقامات الحريري، المقامات الطيبة، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٨٣.

(٤) التعريش: هو النزول آخر الليل، رحله: أي ارتحال. انظر: الحريري، نفس المصدر.

(٥) هو: أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن حبيب السلمي، أبو الطيب المقدسي، اختلفت المصادر حول سنة وفاته، فقبل ٥٢٩هـ، وقيل ٥٣١هـ. والأبيات عند: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر ١٩٨٨، ص ٩٨٨-٩٩١؛ والذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (تحقيق): بشار عواد معروف، ج ١١، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٤٨٢؛ و الصفدي: الوافي بالوفيات، (تحقيق): جماعة من العلماء، ج ٧، دار النشر فرانز شتاينز شتوتغارت (النشر الإسلامية)، ١٩٦٢، ص ٧٢٤، ٧٢٥.

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد روسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة
 الشاسعة، بسبب طلب دولتها لي أعلم اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية،
 فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا أوي على أهل ولا وطن، والعاقل
 أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه وما عاقل في بلدة بغريب.

هذا مع شغف النفس بالأوطان وتأسفها على فراق الأهل والخلان قال
 الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يظنون العلة في ذلك إلى أن
 أوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن عبد الله، يستعديه على رجل من
 التجار يعرف بابن أبي كامل، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها،
 فقال^(١): (الطويل)

ولبي وطنٌ أليبت الأبيعه	وأن لا أرى لغيره الدهر ^(٢) مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمته	كنعمته قوم أصبحوا في ظلالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	مأرب قضاها الشباب هنالكا
فقد أفتته النفس حتى كأنه	غهوذ الضبا فيها فحنوا لذلكا
	لها جسد إن بان غودر ^(٣) هالكا

وعند إبرام العزم على الضعن إلى هذا القطر الحسن، سألتني جمع من
 الأصدقاء والمعارف، وجم من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتاباً،
 أودع فيه ما يعذب مذاقاً، ويطيب شرباً من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع
 شذرة علمية، ونكات أدبية، وطرف استحسانية، ومُلح اختراعية، فأجبت
 السؤال، وبادرت بالامثال، فشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته
 «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا»، ولما حان حين تمامه، وبدا بعد
 النقص حسن إبرامه، أردت أن أشرف ديباجته، وأزين فاتحته بذكر اسم مولانا
 أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، سلطان البرين والبحرين، وخادم
 الحرمين الشريفين، وارث تخت السلطنة كابراً عن كابر، الممدوح اسمه

(١) بغية الطلب : يا واقعاً.

(٢) انظر ديوان ابن الرومي ، ط ٣، دار الكتب المصرية ، ٢٠٠٣ ، ص ص ١٨٢٥ - ١٨٢٦ . مع
 اختلاف ترتيب الأبيات.

(٣) الديوان: وألا أرى غيري له الدهر.

(٤) الديوان: غودرت.

على أعواد المنابر، السَّائِر عدله سير المثل السَّائِر، والفائض كرمه فيض
البحر الزاخر، حامل أعباء الخلافة على كاهله، ومجدد ما اندرس من معالم
الدين ومناهلها، الباني على ما شيد سلفه الصالح، الباني على ما يقوي الدولة
من المصالح، حامى الدولة العلية، وناصر المملكة العثمانية، القائل عزمه
الظافر، كم ترك الأول للأخر، والمنشد فخره بين الملأ، قول المعري أبي العلاء^(١)؛
الطويل؛

وَأَبِي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَأَتِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ
٣٧١؛ والمتمثله رعيته لما عمها من الخصب والسهل، بقول ابن سهل^(٢) :

جاءنا آخر الزمان كما تف تز عند الأصائل الأزهار
مولانا السلطان ابن السلطان المحفوف بعناية الملك المجيد، والملاحظ بحسن
التأييد على التأييد مولانا السلطان عبد المجيد^(٣) :

لازال للإسلام أشرف كعبته لم تخل يوماً من طواف وفوده

-
- (١) أبو العلاء المعري: سقط الزند، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧، ص ١٩٣.
(٢) هو: إبراهيم بن سهل الأندلسي الأشيبلي، اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته والأشهر سنة
٦٤٩هـ. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي صيف ج ١، ط ٤ دار
المعارف، القاهرة، ص ص ٢٦٩-٢٧٠؛ والذهبي، تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٤، ص
٩١١؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٦، ص ص ٥-١١، والأبيات في: ديوان
ابن سهل الأشيبلي، تحقيق: أحمد حسنين القرني، المكتبة العربية، مصر، ١٩٢٦، ص ٤٨.
(٣) السلطان عبد المجيد: الابن الأكبر للسلطان محمود الثاني، ولد في ١٤ شعبان ١٢٣٧هـ/٦
مايو ١٨٢٢م، تولى الخلافة، ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الدولة في غاية الاضطراب
بسبب انتصارات جيوش محمد علي باشا والي مصر ودخولها إلى الأناضول، فتدخلت الدول
الأوروبية عندئذ وأجبرت والي مصر على توقيع معاهدة ١٨٤٠، وتولى الحكم في ٢ يولييه
١٨٣٩، وقد قام بالعديد من الإصلاحات لتنظيم الدولة العثمانية فأصدر فرمان الكلخانة
١٨٣٩م، ثم الإصلاحات الخيرية ١٨٥٦م، وقيام حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) ضد
الروسيا والتي انتهت بتوقيع معاهدة باريس ١٨٥٦، توفي في يونيو ١٨٦١. لمزيد من التفاصيل
انظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، ط ١،
دار النفاس، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٥٥-٥٢٩؛ أحمد آق كوندز، سعيد أورتوك، الدولة
العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إستانبول، ٢٠٠٨، ص ٣٩٧.

لا زالت أوامره نافذة ماضية ولا برحت دولته زاهرة باهية:

بقيت بقاء الدهر ياكهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل
وقلت مقرضاً اسمه الشريف بقصيدة أول صدورها حضرة السلطان عبد
المجيد خان، وأول أعجازها خلد الله ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمت بالظبي هيفاء بنت عيد
ضنيت أسى من ميلها وهي بانة
رنت بلحاظا فاعتري الظبي خجله
هفا نحوها قلبي فقال رقيبها
أنقاد غيا في هواها كمسلم
لفخر بني عثمان خاقان أرضها
سليل الأساطين الكرام وفائق
له الله من ملك محاسبه
طبيب بأدواء الخلافة عالم
أفاض على الإسلام صيب عدله
نمى الخصب ما بين الرعايا بوقته
علا درجات ساميات إلى السهى
بنى وأقام الدين فازداد مجده
دعا الناس بالحسنى لما فيه خيرهم
أعد لنصر الدين كل سميدع
لعسكره الجرار صولته زاهر
مهيّب شديد البأس في حومة الوغى
3/1 ظجرى مدحه في عالم الأدب الذي
يجود على العافي بجزل رفته
دنوت بأمالي إلى روض جنة
خدمت ببيت الشعر عالي بابيه
أتيت إليه خاضعا لعلوه
نعما وللدنيا به ورعيتيه

خدود ورود عن ورود عيد
لها حسن ثغر كالجمان نضيد
دهته وأوته لبلقع بيد
أتهفو فقلت اللوم غير مفيد
لهدي أمير المؤمنين رشيد
لحائز مجد طارف وتليد
هصور طويل الباع أصيد صيد
مأثر ظلم في العباد شديد
لديه دواء الجبر غير بعيد
كغيث على قفرا جس جيد
هنيئا لتنظيم أشاد سديد
إلى حسب عالي النجار عتيد
لهذا دعاه الناس عبد مجيد
يسير إلى اليمين بكل سعيد
أفاض عليه سابغات حديد
خضم بأمواج الرداء مديد
رؤوف وحيد العصر خير فريد
أتى بنظام معجز للبيد
لمحسوب ذياك الحمى ووصيد
زهى حلا شعري به وقصيدي
مريد العلى فالباب خير عميد
أخوض غمازا أو بطيء بريد
نعيم فأيام الأنام كعيد

المقدمة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتربورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحليلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغرية، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتح سنة ست وخمسين بعد الألف والمئتين من الهجرة النبوية- على صاحبها أفضل الصلاة- وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مرس^(١) الأفرنجي - يعني آذار- سنة ١٨٤٠ مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية الجاري على بلاد فرانس والنيمسا ونحوهما، وأما على حساب روسيا فينقصون اثني عشر يوماً، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مرس، ويسمى الأول الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأول السنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أما ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم، ومن حيث أني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالزوس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشيع:

وكان أول عهد العين من جزع بالدمع آخر عهد القلب بالجلد

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادي، [١/٤١] والقمر هادي، والملاح حادي، والنوتي شادي، فهبت بعد برهة روائح الأزهار، فاستنشقتها الأنف ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنيته شبرى الفائقة على البساتين قدراً:

كهيفاء رامت تختفي في شعورها فنم عليها عرفها وسوارها

(١) كذا رسمها المصنف وسنورد هذا الخلاف هنا فقط.

ثم عند الصباح، تلاعب الموج بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند
بلد يقال لها زاوية رزين^(١) وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفارى شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زيبي وكثر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف
الصيداوي مجيباً في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منا انطلق والأسرراح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهـم بي أرسى
مذ غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

وقد ساعده الوقت على إحكام التوريه، وقوله: «والفلك فيكم
جرى» معناه: إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر^(٢):
(المتقارب)

(١) في القرن الثاني عشر وُجدت قرية قديمة تسمى شبرا لون، تسلط النيل على مساكن هذه القرية
ودمرها، فاضطر أهلها إلى إنشاء قرية أخرى بدلا منها في أرض مرتفعة بالقرب من شاطئ النيل،
وسمّوها زاوية رزين نسبة إلى الشيخ رزين الذي كان ضريحة في ذلك الوقت بتلك الجهة. للمزيد
راجع: محمد رمزي في: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة
١٩٤٥م، ج ٢ (البلاد الحالية)، ج ٢ (مدريات الغربية والمنوفية والبحيرة)، الهيئة المصرية
العامّة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٢١٧.

(٢) هو أبو تمام حبيب بن أوس انظر: ديوان أبي تمام الطائي (ت ٢٣١ هـ)، (فسر ألفاظه اللغوية):
محيي الدين الخياط، (طبع بمناظرة والنزام): محمد جمال، نظارة المعارف العمومية، نومرو
٤١٣، ص ٣٥١، والبيت في رثاء خالد بن يزيد الشيباني: انظر: الخطيب التبريزي، شرح ديوان
أبي تمام، قدّم له، راجي الأسمر، ج ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤، ص ١٨٧.

ويضعُد حتى يظن^(١) الجهول بأن له حاجة^(٢) في السماء

١٤٤١م، ثم سرنا بعد هدوء الريح قليلاً، ولا زلنا في سير ووقوف، وجريان
وتجديف غروف، حتى وصلنا بعد اللتيا والتي ثغر سكونديرة ليلة الجمعة
بعد غلق الأبواب، فلم نستطع الوصول إليها بسبب من الأسباب، فقلت متغزلاً
مشيراً لقصة زليخا مع يوسف لما غلقت عليه الأبواب وقالت له: هيت لك، وهذا
يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها حاج
نح الدياجي والحلك
فغلقت أبوابها ولم
تقل لي هيت لك

ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة روسيا
وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سفير الدولة الروسية في
بلاد أمريكا بعد أن كان سفيرها في بلاد الفرس، فأقامت عنده أسبوعاً بغاية
الإكرام ووفور الاحترام، وهو الذي هيجني حين كان في مصر على الذهاب إلى
بلاد روسيا، وذلك أن الأمم منذ تقدمت في التمدن، علمت فائدة ارتباطها
بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

الناس بالناس فلا تنفرد
وكن أبا حزم وتعييش
ما تقوي عن ضعيف غنى
لا بد للسهم من الريش

فلذلك أنشأت مدارس للألسن الغربية، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن
لكي تكون لها ترجمانات عند الحاجات، ولقوة الدولة الروسية، وكثرة
ارتباطها بالدول الغربية، فعلت ذلك وتقدمت فيه على غيرها، حتى أنه يوجد
فيها من أهل الألسن المختلفة ما لا يوجد في غيرها، وقد اعتنى وزير الغرباء
سعادة الكونت [٥١٥] «نسل روض» بالألسن الشرقية، فأنشأ لها مدرسة

(١) في الديوان: لظن.

(٢) في الديوان: أن له منزلاً.

مخصوصة غير قانع بالمدرسة العمومية لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في أوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل «مرزا جعفر» معلم اللسان الفارسي، ومربي التلامذة والتراجمة الروسية، ليس فقط في هذا اللسان بل وفي اللسان التركي، وفيها «مسيو ديميزون» وهو وإن كان ليس مشرقياً، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث أنه يتكلم بها بالسهولة.

ومن حيث إن سعادة الوزير معتن بإحياء مدرسته لا زال في كل حين يجتهد في تسهيل تعلم التلاميذ، فلماذا لما توجه جناب الكونت «ميدن» إلى الديار المصرية كلّفه بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث أنني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرينل» الذي طالع معي كتباً عربية أدبية وتاريخية، واكتسب في هذا اللسان مهارة المعية، بسبب كثرة صحبة العرب، والمعية طلب مبني الذهاب، فأجبت ومن مدة أربع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدهما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدنها، وحامي ذمارها ومؤمنها، فأذن لي وطلب حضوري، فذهبت عنده فأمرني بالجلوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسية، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته؛ لأنه مشغوف بجلب الألسن الغربية إلى بلاده، ولذلك ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصاً في اللسان الفرنسي، وكتب لي مرسوماً بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقاً لمصر (5/ظ) وأهلي فيها:

لتناءي صحابة وحميم
ومباني علومها والفهوم
بي ثياب الصبا وبرد النعيم
تتوالى وتارة في نجوم
لطرده النعا وصرف الهموم
لم يكونوا كمثل ذا من قديم
وحباني بالعز والتكريم
في اكتساب العلوم والتعليم
لبلاد الشمال أفق النسيم
ومع الشمس كيف مرأى النجوم
أنا فيها شمس لكشف الغيوم
هي عندي تدعي سفين النعيم
ولو هاج مثل خيل هيم
يح وتلقى حملاً كحمل الذهب
حيث كنا تحت العناء الوخيم
لاعتساف الملاح من سوء خيم

فاض جفني بماء دمع حميم
حيث فارقت غير قال ديارى
حيث نيطت عمائمي وأمت
تعتريني الخطوب منكدرات
ولثغر الإسكندرية يمت
بلد أهله حماة ذمار
ودعاني عزيز مصر إليه
قال لا تضع زمانك إلا
فيميناً لأرحلن سريعاً
أنا نجم وكم بمصر شمس
فلهذا بزغت نحو بلاد
في سفين النيران قالوا ولكن
جنته جنة تجود في البحر
ما شرع بها فيخرقه الر
مثل ما قد عاينت في نيل مصر
كم سفين هوت بما كان فيها

ثم نزلت في سفينة بخار نمساوية ٢٦ مرس وفيها ثلاث درجات:

الأولى: جهة الدقة، وهي مشتملة على عدة أوض وديوان وسفرة للطعام،
وفيهما كتب لمن أراد المطالعة.

والثانية: جهة السكان وليست كالأولى.

والثالثة: في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكرار.

ووقت الغدا مقرر، وكل من طلب شيئاً أحضره له الخدامون، ولو كان
الثلث من [١/١] أعلى بسبب أن هناك ليس سوق، وسرت في البحر الأجاج المتلاطم
الأمواج، وذلك أول ركوبي المالح والوابور، فحصل لي دوخه وتقيأت، وضافت
نفسى، فذكرت قول ابن رشيق^(١):

(١) الأبيات منسوبة لابن رشيق عند النويري في: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مجموعة
من العلماء، ج ١، دار الكتب المصرية والوثائق القومية، ط ١، ١٩٣٢، ١٩٩٧، ص ٢٥٥.

لا جعلت حاجتي إليه
فما عسى صبرنا عليه

البحر صعب المذاق مر
أليس ماء ونحن طين

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك:

لمحبتى لا يرتضي بتناهي
فكانه متشوق للقائي

النيل غضبان عليّ كأنه
وأرى الأجاج الملح عذباً سيره

وقلت:

من هول هذا البحر نصران
كأنه كشمير نصراني

وبورنا ونار كانونه
أزرق فيه زبد أبيض

وفي ذلك اليوم لم نر أرضاً أصلاً كما قلت:

أرضاً كأننا في طباق سماء

والبحر أزرق كالسماء ولا نرى

ثم وصلنا جزيرة جريد إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصبة بسبب كثرة الينابيع، والإقامة فيها أحسن ما يكون في الدنيا كما قيل؛ لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفة، والمعادن الكثيرة، وافرة المحصولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتان والعسل والشمع والحبر والقطن والسمك والطير، وقد قاست كثيراً من التقلبات والقطن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الروم مليوناً ومئتي ألف، والآن نحو خمسمائة ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء هذه الجزيرة، وروم، وبعض ٦٧ ظاهريين، وأرمن.

وأرسيينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة تحيط بها البيوت المبيضة، فحككت لنا مباني الروم إذ كانت أول ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقد رأيناها موقودة لأننا وصلنا في الليل.

وفي الصباح اجتمعت الناس أفواجا على السّاحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافر، وهكذا في كل البلاد. هذه الأعجوبة لم تنقض جدتها ولا أظنها تنقضي.

ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول خبس وعُدّ كلامه كالهديان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالا لعملها، فأعطاه ثم لما عملها وسيرها أخبره، فلما حضر واجتمع الجم الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأنني سيرتها البارح، ولكن بعض الحُساد لعب في آلتها، فما استمع له نابليون، فلما خبس في جزيرة إلين، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على حسرته، وعض بنان الندم.

وقلت في سفينة النار، وكان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مؤريا:

هي جنة قد ضوّرت من نار
فعدت منافع مسلم ببخار

هذي العجيبة لا تقضي جدة
فيها لبيت الله ساروا شرعا

وعسر عليّ جدا الخروج لرؤية هذه المدينة بسبب الطاعون المصري المقتضي حبسنا في هذه السفينة ثم في الكرانتيينة حتى نتطهر من هذا الحدث الأكبر، فما خرجنا أبدا إلا في إسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ من لمس انتقض طهره، ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولا، فقلت:

لا تغتثر إن مز يوم صالح
قد حل فيه وهو بحر مالح

يارا كبا لجج البحار مخاطرا
لا يُنضح الماعون إلا بالذي

وقلت :

كعيونهم لي مقلق
والطرف منهم ضيق
فهو العدو الأزرق
النيل دوما شيق

للروم بحر أزرق
لكنه متشعب
لا تعجبوا إن خفته
فلذاك قلبي نحو بحر

وقلت عن طريق الخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقى
لم أخش من خطر السفار وأتقي
بل جبت فيه مغربا من مشرق

وركبت لجة بحر روم أزرق (٧/١) من خطبه هيهات ما لي مشفق

أغبر عيش بالتصافي أخضر
والعود من بعد اسوداد مقمز
وأزور محبوب بديع أصفر
وقد حلا فيه الممات الأحمر
وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري: فَمَدَّ اغْبَرَ العَيْشَ الأَخْضَرَ... إلخ^(١).

وقلت:

له من الخُطْبِ العدو الأزرق

ياليتني مثل الحريري قدرتي

وقلت مواليا:

يا ناس على شان غزال البر في الأبحار
نزلت أدورو وفي الحال خدت مركب نار
أنا ترابي وجاني الضد ليل ونهار
أهين من البحر أهين من الهوا والنار

(١) الحريري: المقامات البغدادية ، مصدر سابق، ص ١١٣ .

وفي «الها» توريةً بالهوى بمعنى «الحب»، وكذلك في النار توريةً بنار العشق.

ثم أرسينا ثالث يوم عند جزيرة سيرة وبها محل للكرنتينة ككنى، وبقربها منارة، وتزودنا منها لسفينتنا فحم الحجر، فوقودها الحجارة لأنها سقر، ثم سردنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزمير، وهي مدينة عظيمة من بلاد الأناضول، بها كثير من الأشجار والمباني، وهي شبه جزيرة؛ لأن البحر لا يحيط بها من جميع النواحي، واعلم أن بعض علمائنا يطلق على شبه الجزيرة جزيرة كقولهم: جزيرة الأندلس، وهي تجوز بسبب المشابهة كما نبه عليه الشهاب الخفاجي^(١).

وها هنا نكتة لطيفة، وهي أن بعض مترجمي مصر ترجم كلمة «بريسيكل» بالفرنساوية بقوله: «بحيث جزيرة»^(٢) وهذا من ضيق العطن؛ لأن هذا التركيب لا يحسن في العربية، وزاد ذلك تعسفًا بضم الباء التي هي حرف جر فيكون تصغير بحث، وهو خروج عن البحث، وقد غربت عنه فصاحة استعمال حيث فإنها لا تضاف للمفرد إلا نادرًا، وأيضًا أراد الاختصار فوقع في الإطناب من حيث لا يشعر، فإنه ترجم بثلاث كلمات مع الركاكة، فحق أن يقال له: «حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء»، والذي أجهأ إلى ذلك أن كلمة «برسك» تترجم تارة ببحيث، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول: شبه جزيرة كما قلنا:

ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وهذا باللغة الروسية «بولواستروف» أي: نصف جزيرة.

وقد دخلت أزمير عند رجوعي إلى مصر، فوجدتها بلدًا كثيرة الزحام، ناقفة المتجر، بها كثير من الروم والغرباء، ورأيت فيها بيوت الروم مبلمات بالرخام من أسفل، وعند رجوعي ثانيًا من مصر كرنتت في بيت ظريف على

(١) هو: أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي، توفي سنة ١٠٦٩هـ، المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج ١، المطبعة الوهبية، ١٢٤٨هـ، ص ص ٣٣١-٣٤٣.

خورها، محفوف بالكروم والأشجار، فأقمنا هذه الأعناب، فلم يولد لها بنتاً
تسحر الأبواب.

ثم مررنا على بحر مرمرة، وعندها ساعد اعتدال الهواء الماء والنار، وقرب
الأرض المخضرة بالأشجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد
وقلاع وجبال وتلاع، ورأينا سمكا يطفو على الماء، وكذلك في الخليج
القسطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسلام والتخت الشامخ على الدوام، مدينة
قسطنطينية المحروسة، ونعنا بطلعها المأنوسة، وكان ذلك ليلة السبت،
فحصلت لنا الراحة والسبت. لكن أسفت جداً على الوصول ليلاً بسبب عدم
إبصار المواضع القريبة، وشكرت النار التي أخرجتني من الماء، إذ المراكب
القلعية تمكث شهراً أو أكثر، فقلت حينئذ:

بل أجدوها في هباء هواء
إذ سبوا سفناً بها في الماء
قصودوا التماس
العذر للقدماء

لم يدري عياد السعير ينفعها
وأرى الفرنج دروا
بخالص سرها
مع أنهم لم يعبدوا فكأنهم

[٩٨٧] ومرسى إسلامبول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع؛ لأنها ملتقى
أوروبا وآسيا بين البحر المتوسط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة
مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال،
تتابع فيها قوافل آسيا وسفان أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع، مملوءة
بأمم عديدة وطوائف شتى من الترك والروم والأرمن واليهود والفرنساوية
وغيرهم، ناقمة المتجر، بهية المنظر، يظهر عليها الخصب والخير والترف والمسير،
وزوارقها كالقسي.

ونزلنا من الوابور في زورق في الخليج القسطنطيني إلى قصر الكرنطينة
في اسكدار، وهي مدينة كبيرة من آسيا أمام إسلامبول على شاطئ الخليج
القسطنطيني الأيمن، فيها نحو مئة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق

ذات بهجة، وقرافات مملوءة بقبور الرخام، في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية على الطرفين خصوصاً من سراية حضرة مولانا السلطان، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلم ولا لسان، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها، فهي حرية بقول من قال^(١):

إن الملوک إذا أرادوا ذکرهم
إن البناء إذا تعاضم قـدره
فقلت:

من يرها وذ بها مسکنة
في مصر دار الذل والمسکنة
أني یغدی بي إلى الکرتنه
من لاحت إسلامبول وهي التي
علمت أني ضاع عمري سداً
نسيت من حسن مشيداتھا

فإن قلت: لم قلت الکرتنة، وإنما هي الکرتينه؟ (نظاً) لأن أصلها کراتين کلمة أفرنجية من «کرات» أي «أربعين»؛ لأنها أولاً كذلك، وأما الآن فأربعة عشر يوماً، قلت: نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الکلمة استقوا منها فعلاً مع القلب، فقالوا: کرتن يکرتن ومصدره الکرتنة. وقصُر الکرتينة باسکدار على الخلیج، وبه إوض كثيرة للأمتعة والمسافرين، وفيه حنفيات كثيرة، عذبة للوضوء، وغيرها من المرافق، فلا یحتاج للسقايين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر، فإنها محتاجة للسقايين ولو على النيل، وبقرية مقبرة للمسلمين ومقبرة لغيرهم، فمن مات أيام الکرتينة دُفن هناك.

وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوارمات إحداهن بالجدری، فغسلت وكفنت ودفنت هناك، وقد أخبرني ناظر الکرتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين یعنی من وصولي، فقد من إسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد لله:

(١) نسبهما ابن سعید المغربي للملك عبد الرحمن الناصر المرابوني في: المغرب في حلی المغرب، ج ١، مصدر سابق، ص ١٧٩-١٨٠.

قالت وقد عزمت على ترحالها : ماذا تود؟ فقلت: أن لا ترجعي
فمتى تفقد من مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد، وتهلك
العباد، وقد أصبت في طاعون سنة ١٢٥٢هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم،
وكان رأسي ثقيلاً جداً وخيف عليّ الهلاك وقت البحرانه، وغاب عني الإحساس
والعرفان، ولكن الله سلم، فانفتحت كرة الخطوب وبشرة الكروب، فهل
سمعت قولِي:

يكفيك يا كرة الخطوب إقامةً وتدحرجي ما للكرات قرار
وتفجري لو كنت أنتِ حجارة فلربما تتفجر الأحجار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، (١٩٧١) وانضم الفتح،
وقد كان لي وزد أقرأه للحفظ صباحاً ومساءً، فلتنفيذ إرادة الله نمت ذلك
اليوم مستأخراً، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأشيع
في القاهرة موتِي، فلما علمت بذلك قلت مضمناً:

تمنى أناس أن أموت وأن أمت فتلك طريق لست فيها بأوجد
وان أظهروا موتي فليس بمنكر إذا أظهر الشيطان موت محمد

وهذا تلميح لإشاعة الشيطان: قتل محمدًا. يعني النبي صلى الله عليه
وسلم في بعض الغزوات.

ثم إن قصر الكرنينة تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب والجبل
مملوء بالخضرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محله كجبل
الجيوشي بمصر، فما أطف العبور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود،
فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة،
مسكن الأمراء أيام الصيف، ثم خرجت من الكرنينة ونزلت غلطة، وهي بلد
كبيرة مشحونة بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في
المشي، أمام إسلامبول، وبها قبة عالية سلالها كالمنازة، لكن في وسطها
اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي، نظرت فيها
المراكب والقصور، وفيها ساعة دقاقة من حديد.

٩٧/١] ثم ذهبت في زورق إلى إسلامبول، فوجدتها لطيفة جداً إلا أن لطف الظاهر أبدع. ولعل بهمة مولانا السلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يوماً، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجدها كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصاً قبور السلاطين، ففيها تأنق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهلها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس، ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والشيلانا الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى، والعطر كدهن الورد، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي يختم بها، وبيوتها مبلطة بالخشب، وسقوفها مسنمة بالحجارة أو الخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر حتى في الشتاء، وأما فيها فكثير.

وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في إسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحداً مات من عضته كلب كلب كما في بتربورغ وأطرافها، فإنه تارة يتفق ولو نادراً وجود هذه المصيبة، وقد وجد هذه السنة عدة كلاب بعضها كان بيتياً وعض بنتاً صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، [١٠٧] فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها الداء وهو كربه جداً؛ لأنه لا يقصر على من عضه الكلب الكلب، بل كان من عضه العضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيواناً فيصير الإنسان أو الحيوان سحراناً، وكذا كل من عضه، وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر وتارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكلب، قال الشاعر:

بِناة مكارمِ وأساءةِ كَلِمِ دماؤكم من الكلبِ شفاء

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «الكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على بعض خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضاً الكلب المسمى الدانيمارقي لا يوجد في دنيمارق،

وقد تنسب بعض الأشياء لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلاً يسمون تارة المطاوي التي توضع في مصر مطاوي إنكليزي، والسفر ونحوها المشغولة في الروسية نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاضلاً كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاضلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاضلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل.

ولقد وقع في مصر جليد في بعض السنين فاتخذته العامة تاريخاً لغرابته، وقالوا سنة الجليط أي الجليد، وتكثر الحديقة بالسلامبول لكثرة الأخشاب دون مصر فإن ذلك نادر فيها، ولذلك لما وقعت الحريق في القلعة صار ذلك تاريخاً عند أهل مصر، وقالوا سنة حريق القلعة، وكذلك لما وقعت في الموسيقى، ولذلك ليس ١٠٧١ طاً فيها مواضع معدة لنظر الحريق، ولا آلات الإطفاء من الطرنبات ونحوها كما في بلاد الإفرنج.

والمسلمون يقفلون دكاكينهم يوم الجمعة، كما تغلق اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يقفلون حوانيتهم، ولقد صليت الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلا أن الخطيب تارة يتألق في الخطبة زيادة عن العادة، وطوراً يسرع وتارة يسر وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدارابزي صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإن من يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولا توجد في هذه الجوامع ميضئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب.

وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقى منها، ويملاً السقاويون قريهم ويحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقاويون يحملون القرب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقتلتها بالقسطنطينية، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر فبكثرة

مع عدم الغطاء، ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسود، ومن المباني العجيبة بالقسطنطينية قبة آية صوفية، وتسمى قبة السماء، كأنها هرم ما ضارها قدم ولا هرم، جامع عظيم، وأصله كنيسة لقسطنطين، ١١٧١م واحتترقت فبناها يوستينيان، وصرف فيها على ما قيل خراج مصر سبعة عشر سنة، وضاهى بها الباني المسجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسلام في كعبة إسلامبول مسجداً أقصى.

ففي سنة ٨٥٧ لما افتتح السلطان محمد الثاني^(١) المدينة، دخل هذه الكنيسة راكباً على حصانه، وبعدما صلى فيها وأزال آثار عباد الصليب وصورهم، جعلها مسجداً يتلى فيه القرآن بدل الإنجيل، فجزاه الله خيراً على سعيه الجميل، ويرشد لذلك وضع القبلة والمنبر، فإن المنبر بارز في جانب والقبلة خارجه من الحائط، وبينهما مسافة والعادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقا بالقبلة، وتكون القبلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقربهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبوسطة خاوية كبيرة من رخام يستقى منها، وبها كثير من العرب خدمة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه خمسة عميان وبصيراً يقرأون البردة كما في مصر، وتلفظهم حسن، لأن أصلهم عرب، فأعجبني ذلك، إلا أنهم يلحنون، وهم معذرون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها في مصر، بلد العربية، فكيف في إسلامبول بلد الترك؟! ويقول بعضهم:

مولاي صل على من حل في الحرم محمد المصطفى المخصوص بالكرم

(١) محمد الثاني الفاتح: ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ (٢٠ أبريل سنة ١٤٢٩) وهو سابع سلطان، تولى الملك بعد أبيه، وكانت آسيا الصغرى جميعها تحت سلطانه إلا جزء من بلاد القرمات ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الرومية، وفي يوم ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ (٣ مايو سنة ١٤٨١م) توفي السلطان محمد الثاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة ومدة حكمه ٣١ سنة، استطاع خلالها أن يفتح القسطنطينية، وزاد عليها مملكة طرابزون الرومية والصرى والبوشناق وألبانيا، وجميع أقاليم آسيا الصغرى، ودُفن في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ص ١٦٠، ١٧٦-١٧٧.

بدل قول المصريين:

مولاي صل وسلم دائما أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم
١١/١ اظا، ويقرأ الباقون بيتاً من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة.
وقبتها عالية جداً ومناراتها أربع سامية.
لطيفة:

اعلم أن إسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين
بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كسنتينيول، أو نحو ذلك، يعني بلد
قسطنطين، فلما أخذها المسلمون، قالوا: إسلامبول – أي بلد الإسلام ولم تبق
التسمية القديمة إلا عند النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر
يقولون: اصطنبول، قيل هذا مأخوذ من لسان الأروام؛ لأن استينبولي معناها
«إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مراراً عديدة الروم يقولون
هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثالهم: «جاي
من اصطنبول في علبه»، أي حضري غير فلاح، يقولون ذلك: هُزأً، ويقولون
أيضاً: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صاذاً وقالوا:
اصنبول، أو: اصنبولي، وقلت مواليا:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافرت اجرید ورحت أزمير واصطنبول
رأيت ملامح شكلهم في كل شيء مقبول
ما عندهم شيء رزالت زي ما في مصر
علل على القلب لكن يلتقوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف،
ولم استنكر من إسلامبول الأقواويق^(١) [١٢/١] الأرمن التي هي كالبوش، وزبي
النساء، ومسئلة الذوق لا حرج فيها وكل حزب بما لديهم فرحون:

(١) مفرد قاووق (تركي): فلنسوة غير ذات وبر أسطوانية الشكل تلف في أسفلها قطعة من الموصلي
(المولين). وحشية من القطن. (بوش). دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج ٨، ص ١٦٠.

لا تعذل الإنسان في شهواته
في الناس من يلتذ طعم الحُصْر
وكذلك صعوبة الطرقات في بعض الجهات بحيث يعسر فيها مشي
العربات، ولذلك الغالب فيها المشي أو ركوب الخيل، فهي أجدر بأن تكون
جحيم الخيل، وقلت في مدحها:

قد عاب اسلامبول من لم يدرها
وكذا المليحة عندي ذي غنّة
ما ضارها إن كان بعض طريقها
مثل الصراط فإنها جنّة

وبالجملة فلا تعدم الحسناء ذامًا، وقد ركبت حصانًا مرة من غلطة،
وتوجهت إلى اسلامبول على القنطرة، وهذه القنطرة طويلة جدًا، من رآها
علم عرض الخليج؛ لأنه في المرأى صغير، وذهبت إلى بالقلي - منتزة جميله
كبركة الشيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكذلك كل
الطريق خارج المدينة لينتة سهلة ليست كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة
المطر، وبها كثير من الأشجار، وفي هذا المحل كنيسة الروم التي بنوها بإذن
السُّلطان محمود^(١) عليه رحمة المولى المعبود، وكان ذلك ذريعة إلى استدعاء
أرمن مصر تجديد كنيستهم لما نازعهم في ذلك علماء مصر. وقد أجبوا، وفي
هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بساللم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون
منه رؤوسهم ويشربون تبركًا، وقد وجدت فيها جاذزا وظباء، كما قال الأخطل
في كنيسة الروم^(٢):

إن من يدخل الكنيسة يومًا
يلقَ فيها جاذزا وظباءًا

(١) هو ابن السلطان مصطفى الثاني، ولد في أغسطس سنة ١٦٩٦م، وخلال عهده اتسع نطاق الدولة
العثمانية بآسيا وأوروبا، ومحت معاهدة بلغراد ما لحق بالدولة من العار بسبب معاهدة كارلوفس،
ثم توفي في ١٣ ديسمبر ١٧٥٤، بالغًا من العمر ما يقرب من ستين سنة، وكانت مدة حكمه
٢٥ سنة. للمزيد راجع: أحمد آق كوندز، سعيد أورتوك، مرجع سابق، ص ٣٥١؛ محمد فريد
بك المحامي، مرجع سابق، ص ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢) ابن حبيب السكري، شعر الأخطل، الأب أنطوان صالحاني اليسوعيين، الطبعة الكاثوليكية للآباء
اليسوعيين، بيروت، ١٨٩١، ص ١٩٨.

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص^{١٢/١}؛
بتقليب الأرجل بصناعة، لا بهز الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي
كالكمنجة والقانون، وخيام فيها القهاوي والشربات ونحو ذلك، وللصغار
مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفاق بجانب سامر الرقص، سامزا في وسطه
ميت أرمني يراد دفنه، وجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفزا
عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة
كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهم بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء
والكلام، فهو لاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الرّفن»^(١)، وما رأيت
أحدًا بكى عليه ولا استعير.

وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب
عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل
المخضر، ثم عدت على قنطرة أخرى إلى مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة،
سمى بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيام السلطان أحمد، وهناك يتفسح
كثير من الناس، خصوصاً سكان غلطة ويتنزهون، وهناك قهوة كبيرة،
وقصور حسان، وحوور وولدان، وذكرت بسيري هناك السير في ريف مصر
أيام النيل لكثرة الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف
بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق
هذا الجبل سهلة لينت، وكله أخضر، وفيه أعمدة جميلة، مكتوب عليها
بالذهب، وعليها نشان السلطان محمود، وضعت^{١٣/١} علامة على غاية
رمية السهام، لأنه كان فارساً رامياً، ولهذه الجهالات والأوهام رامياً، أخضل الله
ضريحه، ورفع بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة
بالأشجار المتناسقة، فلله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها
من المراضع، ورأني رجل مغربي في كاغد خانة فعرف بزيي أنني من مصر، فقال
لي يامصري أين ذهبت؟ فقلت إلى غلطة فذلني على الطريق.

(١) وردت العبارة بصيغة مخالفة عند الحريري هكذا: (وضحكتم عند الدفن. ولا ضحككم ساعة
الرفن)، والرفن : نوع من الرقص، المقامات السأوية، مصدر سابق، ص ٩٤.

وقد ذهبت إلى بيت الجي الدولة الروسية في غلطة^(١)، فقابلني بالبشر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر من منذ أعوام وقرأ عليّ شيئاً من الملاحظات وأخبار شعرائها، وله دراية في كثير من اللغات كالفرنساوية والتركية، واسمه نقوله موخين، وفي هذه السنة لما رجعت إلى اسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطول، والعود أحمد، ذهبت إلى الجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبشر، وذلك أولاً من حسن طبيعته، وثانياً بسبب رسالة وصاية كتبها لي حامي الغربا وناصر العلماء مدير الديوان الآسي والمداوي لعلل القلوب، والآسي الجنرال سيناوين، وبحسن عنايته، أنتعم في هذا السفر، كآني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

ومن جدواك راحلتي وزادي
وضيفك حيث كنت من البلاد

وما سافرت في الأفاق إلا
محبك حيث ما اتجهت ركابي

١٢/١: ثم فارقت اسلامبول، وليّ على فراقها أسف الشكلى، ونزلت مع الترجمان المذكور في وبور روسي ٢٣ شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقربه العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك در لطيفة البيوت والأشجار، ولم أجد الماء أبداً، وصرت أجري على ظهر الوبور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في فراق اسلامبول:

أهيف من الترك خلبي القلب في تفتيت
لمن رأى الحب من عيني عمل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي جيت
من خجلتي فت له اصطنبول أنا وجريت

(١) أي سفير الدولة الروسية.

وكان الوقت طيباً، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

فنحن بين السماء والبحر في نور

الشمس إن غربت يبدو لنا قمر

وقلت:

لكنْ فيه سفرتي بيضاء
ومطيتي طنانة غناء
لكني طرب فذاك غناء
إن صح أو إن لم يصح هواء
وتخافها حياته والماء
وعلاه نوح مقلق وبكاء
تلك المياه ومالها إطفاء
أو خريف تارة وشتاء
للنفس جارية حلت سوداء
عجل ولكن خيلها سحراء
بركان نار عمها الإذكاء
جو الشعور ورأسها شمطاء
راقصة لكنها صماء
في وصفها ما تشتهي وتشاء
أو مركب للسير أو رمضاء
أو بيت سكنى جادة البناء

البحر أسود والسماء زرقاء
أنا أنس من طيب وقتي راقص
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها
ببخارها تعدو على أمثالها
وتبق في البحر العميق كضفدع
فالماء منها قد تغير لونه
١٤١٠هـ هل نارها نار الجحيم أما ترى
في بطنها قيظ وفي ظهر ربيع
وركبتها فوق الأجاج وقبل ما
فكانها عربية تجري على
عامودها قذف الدخان كأنه
أو مثل سعلاة أطار الرياح في الـ
وتخال مروحة الهواء كأنها
أعجوبة في شكلها فاقت فقل
هي خان زاد أو حصان مسافر
أو معمل الحداد أو هي نزهة

ثم اتفق الإرساء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعاً وخمسين ساعة، وعند الرجوع هذه السنة كانت مدة السفر تسع وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاحون إنهم وصلوا تارة في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في البور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر مع القبطان، فنظرونا ونظروا تذاكرنا ثم ذهبنا إلى محل آخر نظرنا فيه حكيم، وأمرنا بوضع أيدينا على أباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، ثم ذهبنا إلى

الكرنتينية مع أمتعتنا، فأما نحن فذهبوا بنا إلى محل، أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الوقت حصل لي خجل عظيم، وأبيت أولاً كعنيزة^(١) مع امرؤ القيس، يوم دارة جلجل^(٢).

ثم أخذنا ثيابنا نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تتري، وطاقيّة، و١٤/١ اظاً وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء العجر، وقلت إذ ذاك:

ويوم أودسا جردوني بدلي فصرت بلا ثوب كيوم ولادتي
لبست ثياباً غيرها فكأنني صغير تبدى في قماطٍ ولفّة

ثم ذهبنا إلى المحل المعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوض كاملة الأدوات، محكمة البناء، وحيطانها بالورق المنقوش، وأعطني لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أحضر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب الشخص شيئاً حضر. وخبز هذه المدينة نظيف ظريف إلا أن ماءها ثقيل الطعم كما قلت :

(١) شبّه الشيخ الطنطاوي حادثة رفضه التجرد من ثيابه جميعاً لخجله بحادثة غنيزة عشيقه امرؤ القيس - ابنة عمه - وأنه طلبها وأراد أن يتزوجها ولكنها رفضت، فكان يريد أن يراها عارية فراقبها حتى إذا كان يوم الغدير - وهو يوم دارة جلجل - فراقبها مع بعض الفتيات الاتي تجردن من ملابسهن ودخلن الغدير، فقام امرؤ القيس بأخذ ثيابهن وأقسم ألا يعطي جارية منهن ثوبها حتى تخرج كما هي فناخذ ثوبها؛ فخشين التأخر عن المنزل مع اقتراب رحيل النهار، فخرجت إحداهن، فوضع لها ثوبها فأخذته، وتبايعن على ذلك حتى بقيت غنيزة، فناشدته بأن يعطيها ثوبها؛ فأبى، ومن ثم خرجت غنيزة ونظر إليها، فأخذت ثوبها فلبسته. أبو الفرج الجوزي: المنتظم من تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ١٣٨-١٣٩. وانظر أيضاً: ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب ٢٤، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، هامش ٩، ص ١٠.

(٢) دارة جلجل: تقع في بطن الهضب، من جهته الجنوبية الشرقية، ويقال لها اليوم دارة جلالجل، وهي دارة عظيمة تحيط بها هضبات. راجع عنها: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، ص ١٥٠.

ولله يوم أودسا وطودها تطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها ولكن طعم الماء ليس به حُسن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح، وليس فيها نفسها ماء عذب، إنما يجلب إليها من آبار أو عيون، وتارة يشربون من ماء الصهاريج المملوءة من المطر والعيون بعيدة بنحوست فرست - يعني فرسخ - روسي كما يأتي بيانه، وبسبب حلاوة ماء العيون أكثر من ماء الآبار دائماً ترى العريات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء، ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعنا، فوجدناها منشورة على أخشاب معطرة بمخرة، ومحل الكرنتينة نظيف ظريف، وهو قسمان: قسمن ألم به الطاعون، وإذا مات فيه أحد أحرق هو وأمتعته، وقسم لغيره.

وهناك المروج، فكنا نتفصح فيها وننظر السفن الواردة والذاهبة، (١٥/١) وإنما لم يكتفوا بكرنتينة اسلامبول؛ لأنها جديدة ليست قاسية، فيظنون أنها غير كافية، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك خصوصاً من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية، بسبب إخفاء بعض البضائع، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنتينة، وأما أنا فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة للحلف بالأيمان المغلظة التي منها الطلاق، فقلت: لأي سبب هذا الحلف، هم قلعونا الثياب، وصرنا عرايا بين أيديهم ثم بخرروا الثياب وردوها لنا. ففي أي شيء نخون الكرنتينة، فقيل لي: الروس وكل الفرنج يخافون جداً من الطاعون، ومع كل هذه الاحتياطات فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون، فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة.

والتحليف كثير عند الروس، فيحلفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن يكون أميناً للقيصر وولي عهده، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد القيصر يحلفون حتى يبلغون الحلم. ولنترجم هنا ما ذكره بعض مصنفي

الروس في ظهور الطاعون أيام كترين الثانية^(١) سنة ١٧٧١ قال: «هذا سوط غضب الله النازل من مملكة الترك إلى المليّة المجاورين لهم في وقت زحف الروس على بغداد^(٢) وبلاد الأفلاق».

ومع وجود الكرننتين التي رتبت في روسيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز، دخل الطاعون في وطننا وانتشر في ٣ كانون الثاني، وفي ٩ من ذلك الشهر دبوا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط، وفي الأثناء الكبة، افترتت الأخطاط الجنوبية الغربية من روسيا، وبسبب ذهاب العسكر إلى اللين والترك كان غير ممكن إحاطة القرى البوائية. ولهذا أخذت المملكة أولاً في عمل الوسائط التي (١٥/١)؛ توقف هذا الحادث ونقمعه، فانتخب أبعاد سليم العيال من مريضها، وإبقاء المرضى في البيوت، ويعطي لهم من الشبائيك الأقوات على الميري بعدم الملامسة وكثرة الاحتياط، وعلى تقدير موت المطعون يهدمون بيته ويحرقونه هو وأمتعته، وهذه الوساطة كان معمولا بها فقط في المدن، وبسبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسبب عند عدم تصديقهم بنفع هذه الوساطة انصبّ الطاعون كالسيل المهلك في روسيا متقوتاً بألوف من القرابين، ومنتقلاً من محل إلى آخر وقبله الأخبار الموهلة التي آيست الروس من الحياة، فقط الهلع والأنين يسمعان حيث الهدوء والسعادة المقترنين عن قريب قوما معيشة الروس تحت حكم كترين الكبيرة، وفي الأخر أسوار موسقو ما حمتها من الضيف الملعون الجالب الموت، ففيها كان ظفر الموت الساكن

(١) هي صوفيا أوجستا فريدريك دنهالت زر بست، ولدت سنة ١٧٢٩ بمدينة ستيتين من مدن بروسيا، ولم تسم باسم كاترين إلا وقت زواجها بغراندوق الروس إذ منحها إياه الكنيسة الأرثوذكسية، وكانت أسرة «دنهالت» بروتستانتية لوثيرية، ولم تكن أصولها مشهورة، ومع ذلك فكان لها امتياز الاقتان بالأسر المالكة، ومع أنها كانت تابعة لمملك بروسيا فكانت لها السيادة في بلادها، وفي سنة ١٧٦٢ توفي زوجها بطرس الثالث، ثم تم تنويجها إمبراطورة للروسيا، واشتهرت بالسير على خطة بطرس الأكبر، فاستولت على بلاد القرم وقلعة آزاق وغيرها، واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسا والبروسيا، وتوفيت عام ١٧٩٦. انظر كاترين الثانية «أشهر الخاطنات من صاحبات التيجان»، قصة تاريخية، ترجمت خصيصاً لمجلة الهلال، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٢٢، ص ٦؛ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص ٣٢٩.

(٢) هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السوفيتي والكائنة بين نهري بروت Prut وسيرت Siret. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش (٢) ص ١٧٣.

ومنظر الجهل، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا، لكن لومهم لازم أولاً لتعلم الذرية.
وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسكوب، بل من بلاد الفرنج، وهي جديدة
العمارة من منذ خمسين سنة، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة، وكل
وقت تزيد، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية، كثيرة التجارة
والأمتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب، بسبب
أنه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيباً للمسافرين ١٦١٧ في الوصول.

والمنهل العذب كثير الزحام، فلذلك تراها مملوءة بعربات المتجر، وقل أن
تنفك إلا في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد
الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل الألسن بسبب كثرة الغريباء،
وزيادة على ذلك، إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغريبة كالفرنساوي
والنيمساوي والإيطالياني، فذلك فرض عندهم في التربية خصوصاً لبناتهم.
وهوؤها معتدل في الغالب، لكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة العربات
المحملة بالبضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح
والأمطار بها قليلة، لم نرها إلا ثلاث مرات مدة الكرنطينة.

ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة، لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير
الجو كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كأعمدة، وتارة
كالمشاعل، فتذكرت إذ ذاك حريقة جبر الخيلج في مصر، وكانت الأيام
طويلة أكثر من مصر، فكان النهار أكثر من ستة عشر ساعة، وهكذا
كلما بعد الإنسان جهة الشمال، كما تذكر في أيام بتربورغ، وقد قضينا
هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر والسفن فلا عيب
فيها، إنها تعد من العمر كما قلت:

وأيام على أيام مصر
تطول وغينها عننا مُحجَب
ولست أرى بها عينا سوى أن
تُعد علي من عمري وتحسب

واستمرت على تعلم لسان الروسي مع صاحبي، وحفظت بيتين ١٦١٧ اظاً:
بالروسي مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتهما:

يا بلادي وعزتي الأقرينا
أنا قضيت بالمسرة حيننا

الوداع السودان ثم وداعا
يا بلادا من أسعد الأرض فيها

ثم عند خروجنا من الكرنيتينة جاء حكيم آخر ونظر أباطنا وعورتنا، ثم توجهنا إلى ديوان الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسلوا الكتب إلى محل آخر لينظروها، ثم أخذتها بعد ذلك وسكنت في موضع معد للغرباء متسع نير، وكل هذه المواضع التي للمسافرين كذلك، وكذلك البيوت وطرقها واسعة جداً دائماً يسمع بها قرقعة العربات ليلاً ونهاراً، وفيها منتزه على البحر يسمى «البولفار»، وهو أربعة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسيح خصوصاً في العصاري، وخصوصاً في اليوم الذي تكون فيه الموييسيقى^(١) مثل يوم الأحد، وفيه ذلك لطيفة مثبتة لاستراحة المتفسيحين، وعند طيب الهواء ليلاً تذهب الناس وتجلس هناك على السلالم الكبيرة الموصلة للبحر لاستنشاق الهواء، وقد ذهب هناك في ليلة سكن بها الريح واستروح بنسيمها العليل كل قلب جريح:

وطاب لي النسيم فرق حتى
كأنى قد شكوت إليه ما بي
فجلست هناك انظر للبحر الأسود وكان هادياً، وإلى القمر وهو كحسنا
تارة تحت برقع السحاب، وتارة يلوح بادياً:

والبدر مثل جميلة تاهت على
عشاقها فترقبوا الميعادا
١٧٧١م فيروح طورا تحت سحب براقع
ويلوح طورا حبا إذ عادا

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولفار صورة رشيلي حاكم أودسا السالف، ماداً يده إلى البحر، وواقف على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشياء نافعة للمدينة كأنه منشئها، والعادة بناء آثار لحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئاً عظيماً خارجاً عن العادة، وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

(١) كذا كتبها المصنف وسكتفي بذكر هذا الخلاف هنا فقط.

فلم لا نعمل آثارًا لأسلافنا البارعين وأبائنا الفائقين؟ .

وليس لازماً في الأثر صورة حتى يقال إنها محرمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبالجملة فعلم التصوير علم نفيس يحكي لك الأجيال، ويريك أباك وأمك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلم لا تشتغل به لتشحيذ القرائح القريحة، وتعليل النفوس الجريحة، مع الخروج من الحرمة، إنما بالاختصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؛ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على أن التعلم شيء آخر كما قيل:

تعلم السحر ولا تعمل به
العلم بالشيء ولا الجهل به
وقد كتب لي مسيو فرنييل في مكتوب ما معناه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير»، فكتبت إليه: إنني ما كتبت شيئاً من شأن الصور لأنني رأيتها في مصر. وأحدثت ١٧٧١ ظأول مرة تعجبي واستغرابي حتى قلت:

وصورة حسن قاتل الله من غدا
كلفتُ فيها إذ بدت غير أنني
يصورها ما باله كيف يفعل
إذا زمتُ تقبيلاً فماذا أقبلُ
وقلت أيضاً:

وصورة حسن أبداع الدهر شكلها
توهماً من عيئة آدمية
إلى أن تعدى طورها لب جاهل
ولكنها قد أوتيت عي باقل
فكأنتم فاستبدلوا الغي بالهدى
فقولهم زور شبيهه بصادق
وزجري لهم حق شبيهه بباطل

فكتب إلي: إنه أنسر من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن يقال في التصوير، وإنه وجد إنسان عشق تمثال العذراء عشقاً حقيقياً حتى عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة معدن هذا الفن التي رن فوقانها وطن.

وفي آخر البولفار بيت الكونت فرانسوف حاكم أودسا وما صابها، وما قرب منها مثل بلاد القمر، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبشر، وفرجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة (١٨٨١) وبالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلعة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكال منوعة تلهي نفوس الأناسي عن أمانيتها
على وفاق الهوا فوق القباب بدت فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع، فأخبرته وهو محبب في هذه المدينة، كأنه أب للناس، مجتهداً في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس، وقد عينه القيصر وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس، لما رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا يدخل في باب الحجر والتفليس.

وفي وسط المدينة جنينة صغيرة كجنينة روستق بمصر، إلا أنها كلها طرق، وفيها معمل للماء المعدني، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل على حسب علته، وتتفسح هناك في خلال الشرب. وهناك في هذا الوقت مويسيقى في بعض الأيام، فلهذا يأتي ناس آخر غير المتداوين للتفسح. وعادة الأوروبيين أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر، فيشربون كل يوم مقداراً معلوماً كما يأمر الطبيب، منهم من يشرب أربع كبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة، ثم يشربون أخرى وهكذا، وربما سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني كما يفعل سكان بتربورغ، حيث يذهبون في الصيف إلى هلذت فورس لشرب الماء المعدني وبعضهم يتداوى بالاستحمام في البحر، ويذهبون لأجل ذلك، وبعضهم يتداوى بالأمرين، ومنهم من يتداوى بشرب الماء البارد غير المعدني كما في غريفين بورغ من بلاد النيمسا، فهناك يتداوى تقريبا من جميع الأمراض بلا عقاقير.

١٨٧/١] وفي خارج المدينة حديقة كبيرة تسمى حديقة النباتات، تذهب الناس إليها فزازاً من غبار المدينة وحرها، وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيام الصيف، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار خارج المدينة، فمررت بين صفوف الأشجار، فكان الهواء أطف مع قرب المسافة بسبب عدم كثرة الأبنية، وأما في بتربورغ فلكثرة الأبنية خارج المدينة غالب النواحي حارة، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد، ثم وصلت إلى بيت الجنرال فونتون مترجم الدولة الروسية في اللسان التركي فأكرمني ونوه بقدري، وبيته على ساحل البحر الأسود محفوف بالأشجار والأزهار، وقضيت هناك النهار في الحظ والسرور بين العين والخور، واندفع عني بهوائه ونسيمه وظله الحرور.

وفي خارج المدينة أيضاً مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والإيطالياني والخياطة والنسيج، ونحو ذلك، وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة، فقابلتني ناظرتها بالبشاشة، وفرجتني على جميع الأوض؛ أوض الدروس، وأوض الطعام، وأوض النوم، وكلها نظيفة ظريفة، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة، ومن حيث إن نساء الأوروبيين وبناتهم يحضرن المجالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مهذبة أخلاق الرجال، ملطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء، [١٩٧/١] فكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدباً في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصر، إنما هي مخازن ودكاكين منضمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجار، في غاية اللطف فهذه التسمية مجازية، فتذهب الناس هناك في العصاري، ويتحلون ويتبردون، إذ هناك الحلاوات والمبردات ونحو ذلك، وبالعجالة فممنزعات أودسا تشرح الصدر والفضاد، وتنسى الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشئ عن رفاهية البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المثريين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغريني وتحقق النظر بي خصوصاً النساء؛ لأن لباسي عربي بالكلية، خصوصاً لما كنت أركب العربية، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر،

والخيل باسلامبول، وقلْ مَنْ يركب الخيل، فعَمَّ النظام، وكل عربيات
الركوب بالخيل، وأما عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران
اسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأما الحمير فإني رأيت بها أتاناً تجري في
مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر وفي هذه المرة رأيت اثنين، ولم أجد هناك
من يتكلم بالعربية أولاً كما قلت:

إن جزت مملكة الفرنج تجد بها ما تشتهيهِ النفس من أمنيّة
لكنما العربيُّ في طرقاتها مُستغربٌ يبكي على العربية
فيه توريّة باللغة العربية.

لم يلقَ فرداً عارفاً بلسانه أبداً ولا هو عارف الروسيّة
١٩٧١هـ هو ساكتٌ إذ لم يجد عربياً بها لكنه متكلمٌ بالنيّة

ثم بعد ذلك رأيت بعض إفرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني
بالعربية، وقد كلمتني بنتهم في وسط البولفار، ثم قالت عند الذهاب: اقع
بعافية - على عادة نساء مصر. فقلت حينئذ:

أمرضتني عيونها وهي أن تبغ شافية
مع هذا لسانها قال لي اقع بعافية
وقلت أيضاً:

فتاة من الإفرنج تنطق بالعرب فتطربني ألفاظها غاية الطرب
لياقة ألفاظ وسحر لواحظ وثغر كنظم الدر أحلى من الضرب
تربت بمصر بلدتي ولقيتها غريبين في مرسى أودسا فيا عجب
وقالت بلطف بعد طول تحدّث بعافية اقعد سليمان من العطب
فقلت لها إنني فديتك راحل غذا وفؤادي قاعد عند من أحب

وصادفت في منتزه أودسا فتاة أفرنجية بفرنس عربي، فذكرت بلادي التي
كنت فيها أترى الأنام من الصبوة واللهو والصبأ والمجون:

كان عيشي بها عزيزاً فلا غر

ولعيني تبكي بماء مهين

وقلت :

في أودسا بدت حسان الغواني
وأرى بينهم فوق فتاة
أتراها بذلك اللبس ترمي
فيها قد نسيت وحشة بعدي
أذكرتني بمصر كل رشيق
ونضته من بعدما علمتني
ظلم الردف خصرها مثل ما قد
سجنته بين النطاق أسيراً
هو بعض منها وما رحمته
وأنا ميت بحية صد غيرها
ليس إلا اللحاظ في وسط البلد
وعيونني تنزهت فجنت للـ
أه من عينها وعيني وآه
يا أودسا رفقا بكل غريب

يتبخترن في ثياب الجمال
برنسا من ثياب عرب الرجال
لسلامي بغاية الإجلال
وكأني بذاك بين الأهالي
يزدري لحظة بعين الغزال
عاشقا والهوى قرين الدلال
ظلمتني ولم تجد بوصال
مثل أسرى لقتها الميال
كيف يرجو الغريب رحمة قال
سليم لكن بغير قتال
فارسطو على النهي بالنزال
قلب حتماً أمضه بالنكال
من جفاها وصددها المتوال
واسترى كل طفلة في الحجال

وقلت أيضاً:

تبرنست في أودسا عادة حسنة
فهل تشير إلى أنسي ببرنسا

من الفرنج نفت عني الكرا وسنه
وأنها مع مثلي تفعل الحسنه

وفي أودسا مارستان للمرضى، وبيت لليتامى، وفيها التياتر بالإيطالياني
كتياتر مصر، إلا أنه كله بالمويسيقى ذهبت إليه مرتين، الأولى أظهروا فيها
السلطان محمد، وألبسوا ناساً عمائم كالمسلمين فصوروا إحراقه البلاد،
وحين خرجت وجدت المطر، فقلت: «هربت من الحريقة وقعت في المطر»، ولم
يكن متعمم غيري إلا اللاعبين، فهل أنا منهم؟ لا، ويقصدون بذلك تعليم
الناس أخبار الأمم وأحوالهم وطبائعهم، فهو في الحقيقة درس أدب ومغنى طرب،

يقول لسان حاله^(١):

يا مُغرِّقاً في أدب الدُّرس أفضلُ منه أدبُ النفسِ
والثَّانيةُ أظهرُ وفيها متدلِّهةُ من العشق وعاشقها، ١٩٧١ ظو لا شك أن هذا
يكشط عن القلب جلدة الخشونة والغلظة، فبالجملة التياتر كما قال ابن
عطاء الله: في الدنيا ظاهره غرّة، وباطنه عبرة، وكما قال الآخر:

ليس شيء إلا وفيه إذا ما صادفته عين اللبيب اعتبار
وفيها خانات مُعدّة للطعام مع غاية الإحكام في البناء والنظافة، وعندما
قائمة بما يوجد من أصناف المأكول، فيطلب الشخص ما يريد، وقد يتفق أن
جماعة يذهبون مغا للأكل، وكل يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي
في هذه المواضع نساء حسان يضرين بالقانون، فوالله قد أشغلي حسن صورتهم
عن حسن صوتهم، وتذكرت قولِي سابقاً:

ليتني للسمع ما كنت أشتا ق ولا كنت مولعاً بالملاح
إن عيشي يمزّ في اللهو والحز ن وعيش الغبي في الأفراح
ومعهن بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل من أعطها شيئاً سلمت
عليه بكيفية جميلة، وهذا نوع من الأنحاء يسمى «ريفيرانس»، فأين
صورة هذه النساء المكشوفات الوجوه من صور من يضرب القانون في مصر من
عجائز الرجال؟

تنبیه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إما من
الاتفاق على كلمة، أو استعمال اللفظة الفرنسية وتعريبها، والروس دائماً
يستعملون كلمات فرانسواوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع
وجود كلمة روسية، لكن استعمال الكلمات الغربية أطف، وهذا كما
تستعمل (٢٠١١) الكلمات العربية في التركي والفارسي، أو الكلمات
الفارسية والتركية في العربي، وأما ترجمتها بعمل التمني فلا يناسب:

(١) البيت في: أبي منصور بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣، ص ٥٢٨.

أولاً: هذه الكلمة للسلاطين والباشوات والأمراء. ثانياً: عمل التمني باليد، والريفيرانس بالرجل وبينهما بون بعيد، وقلت مخاطباً لبعض أجبائي بمصر وأنا في أودسا:

يا حبيبي بمصر ما لك تنسى ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا رومافي الوصال مرسا
تورية بشهر مرس الأفرنجي:

جاز بحر الهوى الأجاج وقاسى فوق قيس عشقاً وضعفاً ونكسا
ثم أضحى الهوا لديه حميداً فتراه في دولة الترك أمسى
عاش فيها فوق الخليج زماناً في التذاذ ما فيه صادف بوسا
ثم أجلاه دهره وهو خصم عند مسود بحر شدة فتخسى
ويرى البحر كالماء ولا أر ض يراها أفي السموات وأمسى
ثم طاب الهواء وأحسن لي الده ر فرأست عند سيف أودسا
بلد تلتقي إذا كنت فيه منزلاً واسعاً وخصباً وأنسا
فيه تمشي الولدان والخور زهواً في جنان النعيم صبغاً وأمسا

ثم إن أودسا تسمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسم محل فيها إلى الآن. ولما رجعت إلى أودسا وجدتها زائدة العمارة، حسنة الشارة، فهي كل يوم في ازدياد، إلا أنني دخلتها في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنساني خماسين مصر، ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيدروف النائب ٢١/١، مناب الكونت فرانسوف بسبب غيبته، تلقاني أيضاً بغاية البشر، فقلت:

لم لا تقتدي أودسا بأهلي لك فتلقيني بأحسن بشر

ثم إن علماء الجغرافيا قسموا روسيا إلى أقسام: الروسية الصغيرة، والروسيا الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقد انضمت إلى روسيا ممالك أوردانت لها، وانقادت كمملكة اللين والفينلاد والجرج وغير ذلك كما سيأتي.

ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء ٢٢ آيار في عربة اشتريناها ومررنا على ديوان الجمرك الذي مررنا به أولاً، فنظروا العزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع رصاص، ثم ختموها وأرسلوا خفيراً معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذهاب من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى أول محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلا إذا رأوا ورقة مسماة البدروجين، وتلك الورقة منشنة وعليها نشان القيصر، فبلا هذه الورقة لا يمكن السفر، فهي كالحارس للإنسان، وذلك أن تعطي هذه الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصل بعض شيء يكون التفتيش سهلاً، وهذا البدروجين تارة يشتري، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها.

هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق الولادة، والتعميد والتزويج، والعتق، وغير ذلك لا تكتب إلا في ورق منشن بنشان الروس وثمنه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأول ما دخل ذلك في روسيا ٢٣ كانون الثاني ١٦٩٩ بأمر القيصر بطرس الكبير^(١)، وكان الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة

(١) يعد القيصر الروسي «بطرس الأكبر» القائد السياسي والعسكري الأكثر تأثيراً في تاريخ روسيا، وُلد في يونيو ١٦٧٢، وتقلد الحكم بعد وفاة والده، وهو لم يزل في السابعة عشر من عمره، خاض حروباً عديدة أولها ما كان في عام ١٦٩٦، وكان عمره لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره، وكانت هذه الحرب ضد الأتراك في «أزوف» فانتصر عليهم، وأمن بذلك معبراً لروسيا إلى البحر الأسود، كذلك كانت حربه ضد السويد، عام (١٧٠٠-١٧٢١) وانتصر عليهم أيضاً لتصبح بلاده أهم قوة أوروبية في الشرق، كما أسس بطرس الأكبر مدينة باسمه «سانت بطرسبرج»، ثم تغير اسمها بعد الثورة إلى لينينجراد ثم عادت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلى اسمها الأول، كانت له إصلاحات في مجال التعليم وراح يرسل البعثات للخارج، وكانت كل بعثة تتكون من ١٥٠ طالباً، لكل مناحي الأرض بما فيها دول الشرق الأوسط لتعلم اللغة العربية. وأمر بطرس الأكبر بترجمة ألف كتاب علمي وتكنولوجي وتاريخي، نضف إلى ذلك أن بطرس الأكبر وقف وقفه جريئة لإدخال الإصلاحات على الكنيسة الأرثوذكسية متهما رجالها بالكسل والبطالة، ووضع على رأس الكنيسة رجالاً علمانياً ساعده في القضاء على استقلالية الكنيسة. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة: فولتير، الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر، تعريب، أحمد بن محمد عبيد الطهطاوي، إشراف، رفاة بدوي رافع أفندي الطهطاوي، سلسلة أوائل المطبوعات، العدد الأول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٣، ص ص ت، ث.

فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين في أيام بطرس، وبقي الأخير على حالة زماناً طويلاً، وأما الآن فارتفع الثمن جداً، فالنوع الأول ١٥ كبيك فضة، ثم ٣٠، ثم تسعون، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، فالنوع الأول ٩٠ فضة، لما قيمته من ١٥١ إلى ٣٠٠، والثاني ريل وثمانون لما قيمته من ٣٠١ إلى ٩٠٠، وهكذا على الرابع والعشرين فقيمه الكاغد المنشن ١٢٠٠ ريل فضة، لما قيمته ٣٠٠،٠٠١ فصاعداً، وللمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصد ذكر أنموذج من كل شيء.

فأعطينا البيدروجين وأعطي لنا خيل بالأجرة المقررة وبسبب البيدروجين لا يقدر أن يزيدوا في (٢٢٧) والأجرة، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة، وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفرست يعني فرسخ، والفرست خمسمائة سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذاهب والباقي من المنزل، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عموداً مبنياً من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب جيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذا العلة نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول، وفي كل منزلة أفراس بالأجرة إلى المنزلة الأخرى.

فكنا نغير الخيل في كل منزلة، تارة نأخذ أربعة، وتارة أكثر بحسب المنازل سهولتها وحزوتها، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والغيمة كالصحو فلا مانع أبداً ولا خوف من هذه الطرق التي هي صحارى بلا أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأة وحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب وليس بلازم للمسافر في بلاد

الروسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين إلى بتربورغ. أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق ففتش عليها وأرسلت له في بتربورغ، ٢٢٧/١ ظا، والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوتها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت فقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نهر دينا، وبالمرج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس، وأعجبتني هذه الكيفية المسهلة للأسفار، ووددت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبتني رعي عجول البقر الصغار، وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذاً في تلك الغيطان والأشجار التي لا تنقطع حتى قلت:

أشجارها بالحسن مغيوطة
على دمشق الشام والغوطة

أبصرت إذ جزت على الروسية
تدمشقت من حسن جناتها
وقلت :

لقال فيها جنة الدنيا
لكنه لم يحظ بالرؤيا

لو الحريري أبصر الروسية
أو عدّها أول جناتها

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم، ثم اعتدت عليه، وهي أسهل المركوبات بعد السفن على أنها سفين بر الفرنج، كما أن الإبل سفن بر العرب كما قلت مورياً:

يسهل إذ ما تروم الرقاد

وألذ المركوب ما معه
وقلت كذلك:

تته إلى تلك البلاد
وبها أتيج له المراد

عربيّة العربي جرّ
فيها مشاربه صفت

وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط، ٢٢٧/١ و؛ وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت في أول السفر، فقلت :

رفعوا برانطهم لأجل سلامي
والأرض رشّت ساعة قدامي

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها
حتى السما حيت يبرق ضاحك

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علة
في الواقع، كقول آخر:

وما نزل القطر إلا لكي يُقبّل بين يديك الثرا

فإنه من البيتين، أن علة نزول القطر وسبب البرق ليس التّحية والإكرام
والتقبيل، وهذا من التلاعب بالكلام.

ومررنا على أنهار كثيرة أولها نهربوخ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف
يجر بجبل كمعدية أبيار من قرى مصر، وقد شربت من مائه العذب عند المرور.
قلت: وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر، وهناك جبل مخضرفي وسط
البيوت اللطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذهبة، وصرت أتعجب من حسن هذا
المكان، وأقول: ليس في نواحي بتربورغ مثل هذا المحل في حسن الموضع وطيب
الهواء، وهناك انسلخ منا جلد العجلة الحديد، فأعطيناها لحداد ليثبتها، ثم بعد
مدة انسلخ ثانيا في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهل ونقول: العجلة من
الشیطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان.

ثم وصلنا كييف يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندرة،
وهذه المدينة كرسى مملكة روسيا أولا وعليها آثار القدم، وهي مقدسة
عندهم، بها كثير من جثث قسسهم المقدسين، ٢٢/١ ظا بغير بلاء يزورونهم في
الكنائس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل آية صوفية،
وقد طلعت على سطح كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة، وهي كثيرة
الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينبير، وهو من أنهار روسيا الكبار،
ويتصل إلى موهلوف، وحولها غابات كثيرة ترى سوداء من بعيد، وقد رأيت
فيها النظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقليب أرجلهم كالموج وقلت:

أسد الحروب فأرضها غابات
فلدى بلاد روسيا جنات

لا تعجبوا إن كان أهل روسيا
إن فاتني في مصر أحسن روضة

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعه حول القلعة إظهاراً لقوتهم، وإشعاراً بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية وامتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرياب الجلال، قد تدنس فسطانها^(١) فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك :

قلبي فها هو مرتج على الكفل
أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
هذا جزء الذي قد زاغ في قلبي

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها
ورفعت بيديها الذيل من طبع
وبدلته سريعاً وهي قائلة

ولما رأته أديم النظر إلى حسنها، سمحت بإرسال رسول الصفا، فقلت وقد عراني انقباض وجفا:

خجلاً وقلبي بالعيان قنوع
إن المحبة بالوصول تضيع

مذ أرسلت ديوثها لي عفتها
وأبيت حسن وصالها مع حبها

فكان قلبي سلك طريق سليك بن السلكتة^(٢) القائل: (الوافر)

ويتبع الممنعة النوازا

٢٤١/ يعاف وصال ذات البذل قلبي

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال، صارت تجري أمامي محلقة على دجاجة بيديها فقلت:

(١) كذا كتبها المصنف، أي: الفستان.

(٢) هو السليك بن عمرو «أو عمير» بن يثربي بن سنان من بني مقاعس، والسلكتة نسبة إلى أمه. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، (تحقيق): تحقيق جماعة من العلماء بإشراف: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٢٠، دار الكتب المصرية: القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٢٩. ١٩٩٤، ص ٣٧٥ - ٣٨٩، والبيت في المصدر السابق ٢٠: ٣٨٤.

صادت فؤادي عند كيف رشيقة
قد سرت عنها وهو باق عندها
سحرتة بالنفثات من شفيتها
بث الهوى الإيماء من عينها
لما رأت أني أميل إليها

ودائماً تسمع في كيف دق الأجراس، وكذلك في سائر البلاد، فإنها
مشحونة بالكنائس خصوصاً المدن، وقلت مكتفياً:

وسامرتها والليل مزخ ذيوله
ومذ سمعت صوت النواقيس هرولت
علينا كأننا قاضيان على الهوى
تصلي فراغت مهجتي ضربة النوى
النوى: مختصر من النواقيس، وهذا هو الاكتفاء. أو بمعنى البعد،
ولا يحسن الاكتفاء إلا إذا اشتمل على التورية كهذا، وكقولي:

شكوت للمحبوب نيران الجوى
وقال لي أنت الخليل لي فلم
بكبدي فماس تبهها وقللا
لا أصبحت عليك برداً وسلا
فإن سلا: إما مختصر من سلاماً أو فعل من السلو.
وعلى ذكر النواقيس قال الحاجري^(١):

مذ قام يضرب بالناقوس قلت له
وقلت للعين أي الضرب يؤلكي
من علم الطلبي ضرباً بالنواقيس
ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

وعليه مواخظة أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقه أن ينسبه للقلب،
وكانه قاسه على قرة العين، والفرق ظاهر، لأن قرة العين سكونها عن
الطماح أو بردها سروراً، وهذا ناشئ عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء
الناشئ عن حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشئ عنها، فالعين تنظر فيألم
القلب فتبكي العين، ٢٤١/٢؛ فكانها جوزيت حيث كانت السبب، باقتسام

(١) هو: عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل الحاجري، حسام الدين. توفي سنة ٦٣٢هـ. ابن
الشعار: فلائد الجمال في فرائد شعراء هذا الزمان (المشهور ب: عقود الجمال في شعراء هذا
الزمان)، (تحقيق): كامل سلمان الجبوري، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،
٢٠٠٥، ص ص ٢٨١ - ٢٨٦؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق:
إحسان عباس، ج ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢، ص ٥٠١ - ٥٠٥.

الحظ مع القلب وبكائها بردًا للسرور وحارًا للحزن، فسبحان اللطيف الخبير.

وأيضًا فلا يحسن في الذوق الأدبي إشباع الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضًا فإن ضرب النواقيس من حيث هو لا يؤلم وإنما يؤلم من حيث أنه يسبب الفراق، كما فعلت في شعري.

وعلى ذكر النواقيس، فلنذكر الناقوس الخالد، وهو في موسقو في حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلالم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات المشهورة أنه كان معلقًا في نوقغورد، ونقل إلى موسقو وعلق، ثم لفط ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سامة من طول الانتصاب، لكن حقق بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانيًا، لكن بصرف ألوف زبل، ويظهر كجبل من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم، ولهذا يميل لونه إلى البياض الفضي ويلمع، والفلاحون يزورونه في الأعياد ويعظمونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويصلبون. ومحيط دائرته على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدمًا وأربعة أصابع، وعلوه أحد وعشرون قدمًا وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعًا، ووزنه أربع مئة وثلاثة وأربعون ألفًا وسبع مئة وسبعون رطلًا، وقيمته ستة وستون ألفًا وخمس مئة وستون ليفرستير لانك وستة عشر كبيك، مبلغ جسيم وأثر عظيم يبلى الدهر ولا يبلى.

وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية (٢٥/١) نواقيس يوحنا الكبير التي أعظمها أربعة آلاف البود - أربعون رطلًا - لكن يتعجب كيف تقدر الشيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضروري لصيرورته مصوتًا رنانًا، وفي كفيف مدارس؛ منها مدرسة البنات، وقد أعجبتني من ظاهرها، فكيف من باطنها^(١): البسيط؛

الغصن هذا فأين الظل والثمر.

(١) صفى الدين الحلي: ديوان صفى الدين الحلي، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٤٣٩.

وفيهما مواضع كبيرة ترصد فيها الحريقَة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء، وعند بيت حاكم كيبف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلوم ستر أغصانها لطرق العائط، وفيها قلاع مبنية بالأحجار، وكذلك بيوت كذلك وبالشخب كيبوت الريف، وكل السقوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر، ثم خرجنا من كيف يوم الاثنين ٢٧ منه من باب آخر مقبب، وهناك عدة قبوات تمر السابلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معدية كبيرة، وكذلك نزل عربيات وخيل وناس كثير، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار، وهناك معامل كثيرة لضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة، ثم خرجنا مع العربية من المعدية، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرئ القيس^(١):

(الطويل)

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن خبت ذي حقاف عنقل

لكنها ليست كبيرة، بل الأشجار غالبية بحسنها وتمايلها، وفي هذه النواحي رأيت الفلاحين يحرثون الأراضي كما في مصر، إلا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل، ومررنا على الغربول، وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار، وهناك لما نزلت للاستراحة أحدق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب، وهكذا في جميع الطريق، وقد اتفق أني رأيت في بعض المحطات فتاة ظريفة الشكل، فصارت تنظر إلي وصرت انظر إليها، وكان المطر أحسن إلي بالوقوف أمامها فقلت :

نحوي وقد طار جناح السفر
تحب أن أحدق فيها النظر
والوجه كل الحسن فيه ظهر
حسن المحيا غير غنج الحور
قد ختمت لا بعقيق الحجر
حتى برؤياها نعمت المطر

هيفاء من شباكها قد رنت
أحسن شيء راقني أنها
زمان نهديها بدا نصفه
لا كعذارى مصر يخفين من
أبدت ثنايا بعقيق^(٢) اللما
أوقفني في حيها برهته

(١) امرؤ القيس: الديوان، ص ٣٩.

(٢) ورد هامش للمصنف علي يمين الصفحة ونصه: به تورية لأن العقيق قد يجعل في الختم فيختم به، والنغر يشبه بالخمر فيقال فيه مختوم مع أنه كالختم.

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس ٣٠ منه، وبها وضعنا عصا التسيار،
وأقمنا بها مدة ٢٢ يوماً :

دخلنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرًا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها نهر دينير،
وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يومًا حسنًا، لأن التلامذة
كانوا يلعبون بالموسيقى، ويغنون، وفي آخريوم آخر ذهبت إلى المدرسة،
وتفرجت على المغناطيس وجذبتة، فذكرت قول الشاعر^(١):

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا فحيثما درت دارت نحوك الصور
وقلت :

ما حيلتي في حب غانية قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا لا غرو أن قلبي الحديد صبا

وذهبت يومًا آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي
هناك على عادتهم تحت سقيفة لطيفة تقفي (٢٦/١) من المطر، وكان معنا
حسان، فقلت:

مضى زمن في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند تدفقت فله في أنسي وحزني عينان
وعلي في تثنيه العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله^(٢):

جاد بالعين^(٣) حين أعمى هواه عينه فأنثنى بلا عينين
مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء. وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة
التي عندها مدرسة البنات، فصرن يجرين نحوي، وتفرجت على ضرابي الطوب
خارج موهلوف، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم لئناً كما في

(١) أبو الفضل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج ٢، دار الكتاب الإسلامي،
القاهرة، ص ٢١٣، ضمن ترجمة صالح الجيني غير منسوب لأحد.

(٢) الحريري: المقامات الرحبية، مصدر سابق، ص ٩١.

(٣) جاد بالعين: بالذهب والفضة، انظر: المصدر السابق، ص ٩١.

مصر، وتفرجت على قاعة كبيرة مسقفة للنظام إذا كان المطر، وهي مثل
قرا ميدان في مصر.

وذهبنا إلى الزروع وبتنا في الضياع يومين ، ووصلنا إلى بودن، ورأينا
عندها عيناً تجري تنبع من الرمل على وجه الأرض، وقد وضعت فيها عصا
كانت معي فدفعتها قوة الماء، وهي محفوفة بكثير من الأشجار، ومبني عليها
حاصل صغير، فلله تلك العين ومنظرها الذي تقربه العين، ويسهل فيه إنفاق
العين كثرة العيون، وتفرجنا هناك على صيد السمك من النهر الخارج من
تلك العين، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جداً، فطأطأت رأسي لكي
يسهل عليّ التجديف، وقد استحوذ على شيطان البق في إحدى الليلتين،
فبت بليلة نابغية. ورأيت معمل القطران، وشجر البندق، وغير ذلك من أنواع
الزروع كالبسلة والقمح الأسود والشعير والبتاتس، ورأيت زرع الفواكه
كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار، ولا تخرج هذه الفواكه إلا في الشمس، فلذلك
تقل الفواكه في تلك الديار مع (٢٦/١)؛ كثرة أشجارها، فليست كمصر،
فإنها كثيرة الثمار جداً من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين برشومي
وبلح أحمر وأصفر... إلخ وقتاء، وخيار وقاوون وتفاح وموز ولوز وبرتقان وقصب
السكر. وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين، ومن الخضار كالملوخيا
والباميا والقلقاس، إلى غير ذلك مما لا يحصى مع رخص السعر جداً، فلذلك
قلت :

ونيلها بل رياضها النضرة
فإن أشجارها بلا ثمره

لله مصرر وحسن تربيتها
إن كانت الروسية نمت شجرا

وفي موهلوف رأيت كثيراً من البنات الصغار يلعبن بالقانون، ويرقصن
عليه ويغنين، فقلت حين أطريني ذلك:

تبرقعت بالحسن والدل
تلعب بالقانون في وصلي

هويت أفرنجية طفلة
تلعب بالقانون حيناً كما

وقلت أيضًا:

رقصت مرة على القانون
فتبدلت حشمتي بالمجون

بعدما أطريت بشدو لحون
وتثنت في رقصها وتهادت

ثم بعد ذلك رأيت النساء أيضًا يلعبن ويرقصن من غير نكير، وهذه عادة تلك البلاد، إلا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال بأن يضع الرجل يده على خاصرتها وينطان بصناعة ولا يستنكرون ذلك أبدًا، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره بحضرته من غير إحساس بغيره، ويعدون ذلك من الأدب واللفظ، وتقضية الزمان بالحظ والمسرة، [٢٧/١] ودائمًا محادثتهم مصونة من غير الأدب، إلا أنه تارة ينشأ من ذلك العشق والفساد.

وفي موهلوف حمام، وقد استحمت فيه وحدي، لأنني كنت عند صاحبة فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معًا، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون، فليس معيبًا عندهم كشف العورة في الحمامات وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامات مصر المشتملة على عدة مغاطس وحنفيات، بل فيه طشوت وأسطل مملوءة ماء باردًا وحارًا وصابون وأغصان أشجار صغيرة، وهذا أنموذج لحمامات بتربورغ إلا أن فيها حنفيات وفيها حوض كبير مملوء ماء للاستحمام، وفيها الحماميون يغسلون الشخص بالليف والصابون، إلا أنهم لا يكيسون وبالجملة ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أوض من خشب، أو حجر مدفأة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكيبس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشيعنا أقاربه وأصحابه بعض أميال ثم ودّعونا، فكان ذلك الوقت مشبهًا لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

سـت بالصفـا في موهلوف
عيني وكم خـل ألوف
ن فهكذا نصل السيوف

لله أيام تقصـُ
كم من جـسان أبصرت
لا تنكروا زرق العيـو

ثم جزنا في الليل على قرية صغيرة تسمى سكندرية، وقد استحوذ
شيطان الحريقة على بيوتها، وعند ذلك رأيت أهل القرية محققين حول
النيران، ولا يستطيعون إطفائها، وقلت ملوحاً بقصة إسكندر ذي القرنين:

رأيت بها نار الحريقة لا تهدأ
هناك ذو القرنين يبني بها السدا

ولما بدت إسكندرية سحرة
فهل خوف يأجوج ومأجوج قد أتى

وقبل الوصول إليها بدا الלהيب، فكنا نظن أنه شفق، فهذه الليلة كانت
كليلة ابن بابك^(١) حيث قال:

(البسيط)

وبت آخرها استجذب الطربا
مد الظلام على أرواقها طنبا
فكلما دب فيه أثمرت لها
عاد الزمرد من عيدانها ذهباً

وليلة بث أشكو الهمم أولها
في غيضة من غياض الحزن دائية
يهدني إليها مجاج الحممر ساكبها
حتى إذا النار طاشت في ذوائبها

ثم مررنا على فينسيك، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من الكنائس،
وأقمنا بها يومين، وذهبنا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقها الكثيرة الأزهار،
وبها كثير من اليهود مثل موهلوف وسائر البلاد التي جزنا عليها، ومن بعدها
بقليل تقل اليهود، فلا يرى إلا محض الروس خصوصاً في بتر بورغ، إذ ممنوع
فيها سكناهم، فمن جاء لوقت معين. ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت ضحو،
كما في غالب الطريق والبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر، ثم في
يوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمت الأفاق، وذلك عند القرب من

(١) هو: عبد الصمد بن منصور بن بابك، أبو القاسم. توفي سنة ٤١٠ هـ. الثعالي: يتيمة الدهر،
مصدر سابق، ص ٤٣٦-٤٤٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٣، ص
١٩٦-١٩٨؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ٩، ص ١٥١-١٥٢. والأبيات في
يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٣٨.

بتربورغ، فقلت:

أنا يا بتر بورغ جئتكَ بالبـ
أنتِ غضبي عليّ أم ذاك تيهـ
شزّ وتلقيني بوجه عبوس
ودلال والديه شأن العروس

ثم بعد برهة تبسمت الشمس بالإشراق، فقلت:

عند ازدياري بتر بورغ رأيتها
خافت وذا ماء البكاء وقبلها
٢٨٧) أو أنها استحيت وذا عرق الحيا
ما زلت أخدعها بلين مقالتي
بنت السرو يضمها ابن سحاب
خافتي الأبقار لاستغرابي
والبكر يخجلها لقا الأعراب
حتى تبسم ثغرها لخطابي

وفي قرب بتر بورغ الروضة الملكية المحفوظة بالأشجار المتناسقة والجدول المتدفقة والقصور الشاهقة والأزهار الباسقة والطرق إذ ذاك بين سطرين من الأشجار كما في غالب الطرق فاذكروني ذلك طريق شبرى بقرب القاهرة، إلا أن الأشجار في هذه الروضات أكثر لكن في تلك أطيب وأبهى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهذه طريق العربيات، وهناك طريق أخرى، وهي طريق الحديد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفاً وشتاء، إلا أن الصيف أكثر، فتذهب الناس أفواجا للتفسيح هناك والتفرج على ما هناك من العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة.

وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفين بالأماس أهداهما السلطان محمود إلى القيصر، وهناك بيت للفيل، وللأغنام الغربية، وسائر الحيوانات الغربية الشكل، ثم من تسارسكياسلو^(١) تذهب عربات البخار إلى بافلوسكي - منتزه جميل فيه بستان كبير وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطئ تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الرياحن.

(١) أي: قرية القيصر، مسكن العائلة الإمبراطورية.

وهناك مررنا على الرصد، لكن ما رأيته إلا بعد مع جناب سفير جوقند العالم العلامة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشراف، وقد شربت معه أفوايق الأدب، واستجلينا عرائس الطرب، وما رأيت من السفراء الوافدين إلى بتربورغ من ذوي الفضل والآداب إلا هو وجناب سفير الدولة العلية حضرة فؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجاوزنا كما قال الحريري طرف الأناشيد، وتواردنا طرف الأسانيد، فوجدته تعلمة نقّادا، وألفته روحاً لجسم الأدب، ولا بدع أن سُمي لذلك فؤادا، وفي تلك السبل صارت الخيل تجري كالطيور، والأرض تطوي كطي الزبور، فتمثلت بقول الشاعر^(١):

وكنّت إذا ما جئت ليل^(٢) أزورها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

وسبب ذلك أن هذه الطرق مثبتة بالأحجار الصغيرة، وتسمى منعولتة كأنها لابسة نعل، فما ألطف من مشي العربات عليها بخلاف الطرق غير المنعولتة، فيعسر عليها مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمادى الأولى، دخلت بتربورغ:

وكان آخر عهد الطرف من فرح بالدمع أول عهد القلب بالجلد

(١) هو: كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر، أبو صخر الخزاعي الشاعر، ديوان كثير، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١. والبيت في ديوانه، ص ٢٠٠.
(٢) جئت ليل: في الديوان زرت سعدى.